

الفكر السياسي لمدرسة فرانكفورت النقدية

أ.م.د. عبير سهام مهدي (*)

المقدمة :

تعد مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت واحدة من أبرز المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة، والتي اكتسبت اليوم أهمية بالغة نظراً لغنى وتنوع كتاباتها المنفتحة على مختلف المرجعيات الفلسفية الكبرى (الكانطية، الهيغلية، الماركسية، الفرويدية. الخ) ومواكبتها للاشكاليات المعقدة المطروحة في المجتمعات المعاصرة، وللتحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية لعالمنا المعاصر، ولعل أبرز ما يميز هذه المدرسة الفلسفية يتحدد في كونها اتخذت النقد منهجاً، وحاولت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحدائنة الغربية ولاسيما الانوار، التي تعد نقطة تحول جوهرية في مسار هذه الحدائنة، كما أنها أدت دوراً مهماً في رصد الأعراض (المرضية) المختلفة التي عرفتها المجتمعات الغربية المعاصرة كـ(التشيؤ)* والاعتراب وضباب مكانة الفرد وازمة المعنى وغيرها مما حدا بالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت بتوجيه انتقادات جذرية وعميقة للمفاهيم والقيم التي تأسست عليها هذه المجتمعات كالعقلانية والحرية والتقدم العلمي والتقني وما ارتبط بها من نزعات وضعية وعلموية، وغيرها من النزعات التي عملت على الحفاظ على الوضع القائم والمصالح المهيمنة فيه، ولهذا قدم مفكرو مدرسة فرانكفورت تحليلاً نقدياً للمجتمعات المتقدمة تكنولوجياً ولأسسها الأيديولوجية قصد الكشف عن الآليات الفكرية والسياسية التي تتحكم وتوجه هذه المجتمعات. من هنا انطلقت فرضية بحثنا الموسوم بـ(الفكر السياسي لمدرسة فرانكفورت النقدية) من أن مدرسة فرانكفورت سعت إلى تحقيق هدف واحد وهو العمل على تغيير الواقع ليصبح أكثر إنسانية وإيجاد صورة العقل التي تتناسب مع هذا العقل

* كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد.

* التشيؤ: مصطلح صاغه (لوكاتش) ليصف ماسماه ماركس (التشيؤ السلمي) الذي يذهب إلى أن الانتاج في النظام الرأسمالي يركز عنايته على السلعة المنتجة من حيث أنها حصيله عمل مبدول وادوات انتاجية، وبالتالي تصبح قيمتها كاملة في سعرها أو ما يسمى بالقيمة التبادلية وليس قيمتها الاستخدامية. ينظر: نوم بوتومور، مدرسة فرانكفورت، ترجمة: (سعد هجرس)، ط ٢، دار اوبا، ليبيا، ٢٠٠٤، ص ١٧٧.

الانساني من خلال محاولتها لوضع نظرية نقدية للمجتمع تربط بين التفكير والممارسة مع بعضهما ربطا جديا . وللبرهنة على فرضية البحث نطرح التساؤلات الآتية:

١ - كيف نشأت مدرسة فرانكفورت ؟ ومن هم ابرز فلاسفتها ؟

٢- ماهي مصادر افكار هذه المدرسة ؟ وكيف تطورت ؟

٣- ماهي علاقة روادها مع الفلسفة الهيغلية والماركسية والوضعية ؟

وفي ضوء التساؤلات التي تم طرحها في فرضية البحث فقد تم تقسيم الموضوع الى اربعة مباحث فضلا عن المقدمة والخاتمة، فقد تناولنا في المبحث الاول: الاصول التاريخية لمدرسة فرانكفورت النقدية، اما المبحث الثاني: فقد ناقش المصادر الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية، اما المبحث الثالث: فقد كرس لمناقشة المنطلقات الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية، والاخير تناولنا فيه الاتجاهات الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية .

المبحث الاول: الاصول التاريخية لمدرسة فرانكفورت النقدية

قبل الاشارة الى نشأة هذه المدرسة ومن هم فلاسفتها، لا بد من القول ان الفلسفة الغربية المعاصرة، ولاسيما الفلسفة الاوربية منها بالتحديد ، قد اسهمت بنصيب وافر في ظهور مدارس وحلقات فلسفية كبرى لعبت دورها الكبير في الفكر الفلسفي العالمي، من خلال ما زودت به هذا الفكر من مناهج ورؤى وتصورات واحكام على مستوى المعرفة والميتافيزيقا والاخلاق والمنطق والمنهج والسياسة. ونذكر على سبيل المثال المدرسة الوضعية المنطقية، والمدرسة الوجودية، والمدرسة البراغماتية، والبنوية، وما مدرسة فرانكفورت الا واحدة من تلك المدارس الفلسفية الكبرى التي ظهرت في القرن العشرين وما زالت قائمة الى يومنا هذا^(١). وقد حصلت مدرسة فرانكفورت على طابعها المؤسسي عبر تأسيس معهد الابحاث الاجتماعية في عشرينات القرن الماضي، وقد وضعت الحلقة الدراسية الاولى للعمل الماركسي لبنات التفكير في اسباب ازمة الفكر الماركسي واخفاق (ثورة ١٩١٨) في المانيا، وقد جمعت الحلقة الدراسية عدد من الباحثين من ابرزهم رجل الاعمال (فليكس فايل)، والاقتصادي (فريدريك بلوك)، والمفكر الماركسي (جورج لوكاتش)*، الا ان المشروع لم

(١) حسن مجيد العبيدي ، فلاسفة مدرسة فرانكفورت ونشأتها ، ١٢ / ٢ / ٢٠١٣ : www.kitabat.com

* جورج لوكاتش: ماركسي مجري ولد في بودابست في العام (١٨٨٥) ودرس على يد (ماكس فيبر) وكان في بدايته وجوديا ثم تحول الى الماركسية وانظم الى الحزب الشيوعي المجري في العام (١٩١٨)، كاد (لوكاتش) ان يصير واحدا من من اعضاء مدرسة فرانكفورت لاسباب عديدة ، اهمها الحرص على الانتماء الى التراث الهيغلي الماركسي بما يخدم ظروف المشروع الثقافي الغربي المتحولة، غير ان ما يعده عن تلك المدرسة هو تأرجحه بين الالتزام السياسي الايديولوجي المباشر وهو ما تسبب له بمشكلات =

يتكلم بالنجاح، غير انه عدّ بمثابة الانطلاقة التي دفعت بعض المشاركين في الحلقات في التفكير جدياً في تأسيس معهد الابحاث الاجتماعية^(٢).

وقد تأسس معهد الابحاث الاجتماعية رسمياً في ١٩٢٣/٢/٣ في جامعة (غوته) بمدينة (فرانكفورت) في ألمانيا، وقد توخى المعهد في البداية احتضان الابحاث النظرية الاشتراكية التي اقلقت الجامعة الالمانية الابواب في وجهها، وكان المعهد يظم جملة من المثقفين اللذين لم يتبنوا طروحات الاشتراكية، ورفضوا الانضمام الى الحزب الشيوعي الالمانى بعد فشل (ثورة ١٩١٨) يحدوهم العزم لبلورة فحص عميق لاسس النظرية النقدية، كان المعهد في البداية يتولى الاشراف عليه استاذ القانون والعلوم السياسية في جامعة فيينا (كارل جرونبرج)، وفي العام (١٩٣١) تم تنصيب (ماكس هوركهايمر)* رئيساً للمعهد وتعيين (تيودور ادرنو)** استاذاً مساعداً له، ويتعاون (هوركهايمر وادرنو) اخذ اسم النظرية النقدية في اللمعان اذ لم يعد الاهتمام منصب فقط على نقد الاقتصاد السياسي كأداة لتحليل المجتمع

=ومتابع شخصية وبين الاخلاص للبحث الفلسفي الجاد الذي اتاح له ان يقدم بعض من اهم الاعمال الفكرية في هذا العصر . للاستفاضة: ينظر: توم بوتومور، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١.

^(٢) كمال بو منير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوركهايمر الى اكسل هونيث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١١، ص ٣٩.

* ماكس هوركهايمر: ولد في العام (١٨٩٥) في مدينة (شتوتنكارت) الالمانية، وكان سليل عائلة يهودية ثرية وبناثر العائلة ترك دراسته في المدرسة المتوسطة وكان عمره يحدود السادسة عشر ليعمل في مصنع والده، وفي العام (١٩١٦) اجبر على ترك العمل والالتحاق مقاتلاً في الحرب العالمية الاولى، وبعد انتهاء الحرب التحق بجامعة (ميونخ) ودرس فيها الفلسفة، وعلم النفس، انتقل بعد ذلك الى جامعة فرانكفورت، كتب في العام (١٩٢٥) اطروحته للدكتوراه وكان عنوانها (نقد الحكم عند كائط: التوسط بين الفلسفة العملية والفلسفة النظرية) وبعد سنة واحدة عين هوركهايمر استاذاً مساعداً. للاستفاضة: ينظر: محمد جلوب الفرخان، مدرسة فرانكفورت النقدية واتجاهاتها الفكرية:

www.drmmfarhan.wordpress.com

** تيودور ادرنو : ولد في فرانكفورت ، وكان الطفل الوحيد لوالده ، وهو سليل عائلة يهودية تحولت الى البروتستانتية ، لعبت شخصية عمته (آكاتي) الموهوبة في الموسيقى ، دوراً مؤثراً في توجيه اهتمام الطفل (تيودور) نحو الموسيقى وخصوصاً العزف على البيانو ، تخرج من مدرسة (كاسير ويلهم) وعمره سبعة عشر عاماً وكان من الطلبة الاوائل في دفعته، وفي جامعة فرانكفورت درس الفلسفة ، علم النفس ، وعلم الاجتماع وتخرج في العام (١٩٢٤) ، وخلال سنوات التلمذة في فرانكفورت كتب العديد من المقالات في النقد الموسيقي وكان يتطلع ان يكون مؤلفاً موسيقياً ولهذا الغرض عمل اتصالاً في العام (١٩٢٥) باعضاء مدرسة (فيينا) الا ان خيبة املة في ان يكون مؤلفاً موسيقياً حملته الى العوده الى مهنته كأستاذ جامعي وباحث اجتماعي. للاستفاضة : ينظر : محمد جلوب الفرخان ، مصدر سبق ذكره .

الرأسمالي كما كانت ترى الماركسية، انما اعتمدت- اي مدرسة فرانكفورت- على اجراء مقارنة تركيبية تقوم على ربط الفلسفة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية^(٣).

لاشك ان اوضاع المانيا السياسية غير المستقرة قد اثرت تأثيرا ملحوظا على مدرسة فرانكفورت النقدية، وبشكل خاص تنامي النازية وحزبها الاشتراكية الوطنية والذي اصبح أكثر تهديدا للمدرسة، لذا فان مؤسسي المدرسة وخصوصا بعد صعود (هتلر) الى السلطة في العام (١٩٣٣) قرروا نقل معهد الابحاث الاجتماعية الى بلد اخر، وفعلا فان المعهد غادر الى (جينييفا)، ومن ثم الهجرة الى (نيويورك) في العام (١٩٣٥)، ومن ثم التحق المعهد بجامعة (كولومبيا) الامريكية، وشهدت هذه المرحلة نشر اهم اعمال منظري مدرسة فرانكفورت النقدية والتي لاقت قبولا واسعا من قبل الاكاديميات الامريكية والانكليزية، وعاد كل من (هوركهايمر وادرنو وبلوك) الى المانيا في بداية الخمسينات، وفي العام (١٩٥٣) اعيد فتح معهد الابحاث الاجتماعية رسميا في مدينة فرانكفورت^(٤)، ومما لاشك فيه ان هجرة مدرسة فرانكفورت الى الولايات المتحدة الامريكية قد اثرت الى حد كبير في اعمالهم لذلك فانهم، ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وغروب النظم الفاشية والنازية شرعوا في تحليل المجتمع الرأسمالي الذي كان سائدا بصورة متميزة في امريكا خاصة مع تنامي نظامه الاقتصادي التي كونت الرأسمالية قوته، وهو مايفسر توجه بحوث المعهد هناك الى قضايا عدة في هذا المجتمع، كقضية السيطرة الشاملة، والقضاء على قيمة الفرد والقهر التقني، وصناعة الثقافة^(٥)، وبهذا المعنى يمكننا القول ان المشروع الفلسفي النقدي لمدرسة فرانكفورت لم يكن منفصلا عن السياق التاريخي والاجتماعي الذي عرفته المجتمعات الغربية، بل ان المدرسة قد واكبت بعض الاحداث السياسية والاقتصادية التي اثرت فعليا على هذا المشروع، منها: اندلاع الحرب العالمية الاولى، والثورة البلشفية في روسيا، و اخفاق الثورة في المانيا، وعجز الحركات الاشتراكية الراديكالية في اوربا الغربية، وظهور الستالينية في الاتحاد السوفيتي، والنظم الفاشية والنازية في ايطاليا والمانيا، وهيمنة النظم الرأسمالية وتعزيز سيطرتها الاقتصادية والايديولوجية خاصة بعد خروجها من الازمة الاقتصادية الطاحنة التي مرت بها

(٣) فيل سليتر، مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها: وجهة نظر ماركسية، ترجمة: (خليل كلفت)، المجلس الأعلى للثقافة،

القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٥.

(٤) توم بوتومور، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

المجتمعات الغربية في الثلاثينات من القرن العشرين^(٦). ومن هنا وجدت مدرسة فرانكفورت نفسها تضطلع بمهمة رئيسية تتمثل في ممارسة نمط من النقد الفلسفي ينصب اساسا على الوضع الاجتماعي قصد تغييره وتجاوزه. وقد توالى طروحات مدرسة فرانكفورت عبر اربعة مراحل مهمة هي:

المرحلة الاولى / والتي تمثلت في العالم (١٩٣٠) في فترة تولي (جرونبرج) ادارة المعهد اذ اتسمت طروحات المدرسة بطابع ماركسي ثوري ، اهتمت المدرسة بالدراسات البحثية الميدانية وركزت على مناقشة قضايا المادية التاريخية للماركسية والاقتصاد السياسي ومشكلات الاحزاب السياسية وتطور علم الاجتماع منهاجاً وموضوعاً وقد التزمت المدرسة بموضوعين: اولهما: الالتزام بالخط الماركسي، وثانيهما: محاولة اثناء الكتابات الماركسية عن طريق الاستفادة من اجراء البحوث الامبيريقية- اتجاه في نظريه المعرفة، يرد المعرفة الى الاحتكام للواقع، بواسطة ملاحظته واختباره، والميدانية لدعم عمليات تحويل المجتمعات الأوربية إلى النظام الاشتراكي^(٧).

المرحلة الثانية/ ترأس المدرسة في هذه الفترة (ماكس هوركهايمر) وسعى الى تغيير منهجية المدرسة وفلسفة تحليلها للواقع والبعد عن مثالية (هيغل) والتطرف الماركسي التي اكدت ان كل من النفس الاجتماعية والقانون والفن ماهي الا انعكاس للواقع المادي الاقتصادي، ومن ثم اكدت النظرية النقدية على ضرورة الاعتراف بالدور المستقبلي للثقافة في صياغة التفاعل الاجتماعي وقد كان اهتمام المدرسة لهذه الفترة منصب على ثلاث مجالات رئيسية هي: دراسة البناء الاقتصادي للمجتمع، تحليل النمو او التطور النفسي للفرد، دراسة الظواهر الثقافية^(٨).

المرحلة الثالثة / تميزت هذه المرحلة (١٩٣٥ - ١٩٤٩) - بنشاط الرواد في الولايات المتحدة الامريكية (المنفى) وقد جاءت افكار المدرسة لتعكس بعدين اساسيين هما :

(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٧) عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٣ ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(٨) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الاول: دراسة وتحليل الظروف الداخلية في المانيا خلال الفترة النازية والسعي الى اكتشاف الخرافات الاجتماعية، وقد تم الغاء البحث الاجتماعي لان علم الاجتماع قادر على كشف النوايا الحقيقية في المجتمع الألماني^(٩).

الثاني: طبيعة تباين المصالح وعلاقة جماعة المصلحة والضغط ودورها في صنع القرارات الداخلية والخارجية، وفي هذه الفترة لقي الكثير من منشئي هذه المدرسة مصرعهم والبعض منهم هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية او الى اوربا، الا ان بعض من رواد هذه المدرسة ظلوا يواجهون افكارهم حسب الفكر الايديولوجي النازي امثال (هابنز فيفز، ولتر، ايبس)، وقد ركز البعض الاخر على دراسة الفلكلور بعده موضوع امن من الناحية السياسية والاجتماعية، ولكن الجيل الثاني من المدرسة هم من اهتموا فعليا بتطوير النظرية النقدية، من امثال (ادرنو، ماركوز*، هوركهايمر) اذ اهتموا بدراسة الواقع الرأسمالي عن قرب مستخدمين في ذلك الشواهد الواقعية والملاحظة، وتناولوا قضايا ومشكلات المجتمع الامريكي بصورة نقدية وتحليلية ومع نهاية هذه المرحلة تغيرت اتجاهات معظم رواد هذه المدرسة فتحول (ماركوز) الى دراسة التحليل النفسي في (نيويورك)، الا ان (هوركهايمر) عاد الى المانيا في العام (١٩٤٩) ليواصل عملية التحليل الواقعي لمشكلات المجتمع الحديث^(١٠).

المرحلة الرابعة / وقد مثلت هذه المرحلة عودة عدد كبير من رواد هذه المدرسة الى المانيا، وتركزت تحليلات المدرسة على بعدين هما :

(٩) ينظر: علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت: من هوركهايمر الى هابرماس، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، د.ت، ص

* هيرت ماركوز : فيلسوف ومفكر سياسي أمريكي من اصل ألماني ولد في (برلين) من أسرة برجوازية يهودية مندمجة في الحياة الألمانية، عاش في ألمانيا وغادرها في العام (١٩٣٢) هربا من النازية، دخل في العام (١٩٣٢) معهد الأبحاث الاجتماعية في فرانكفورت، نشر مؤلفاته الرئيسة في مرحلة متأخرة من حياته وبعد مرحلة من النضج والتفكير، وبقي ماركسيا أكاديميا ملتزما إلى إن صدر كتابه (الجنس والحضارة) في العام (١٩٥٤) الذي أحدث تغييرا كبيرا في فكره ولاسيما بعد قرائته المعمقة لمؤلفات (فرويد). للاستفاضة : ينظر : عبد الوهاب الكيالي واخرون، موسوعة السياسة، ج ٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص ص ٦٥١ - ٦٥٢.

(١٠) عبد الله محمد عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٥

الاول : مناقشة التفاعلات والاحداث الواقعية وخاصة ظهور مجتمع الوفرة وحياة الرفاهية التي عاشتها المجتمعات الرأسمالية وظهور النزعة التسلطية والبيروقراطية في المجتمع السوفيتي خلال فترة حكم (ستالين)^(١١) .

الثاني : الاهتمام بعلم الاجتماع في حد ذاته سواء في المانيا او الدول الاوروبية والولايات المتحدة الامريكية ومحاولة اعادة صياغته وتأسيسه على اسس علمية وموضوعية جديدة، الا ان هذه المدرسة واجهت صعوبات عدة اهمها : عدم تناول القضايا التي نتجت عن فترة الحكم النازي واستمرار كراهية السلطة لعلم الاجتماع^(١٢) . لقد اتخذت مدرسة فرانكفورت من ضمن استراتيجياتها المهمة الهجوم على الميتافيزيقا والمثالية، وقد اصدر المعهد صحيفة متخصصة تمثل وجهة نظر معهد الدراسات الاجتماعية ومن ضمن المقالات المتميزة التي نشرت في الصحيفة مقالة ل(هوركهايمر) بعنوان (الماركسية وعلم الاجتماع) ومقالة ل (اريك فروم) بعنوان (الماركسية والتحليل النفسي) ودعى فيها (اريك فروم) الى علم ماركسي نفسي يمكن المزاجه فيه بين الماركسية والفرويدية، وقد قام اعضاء المدرسة بدراسات جماعية منها: حول دور الطبقة العاملة في اوربا ومنها ايضا دراسات حول الجدل الهيغلي وكذلك دراسة جماعية حول الشخصية الفرويدية وكذلك دراسة جماعية حول الشخصية الفردية وكذلك دراسة الشخصية الاستبدادية وقد ساهم في تلك الدراسات المشتركة كل من (اريك فروم، وادرنو ، وهوركهايمر ، وماركوز)^(١٣) . هذا من جانب، ومن جانب اخر يمكن القول بان جميع مفكري مدرسة فرانكفورت كانوا بعيدين عن الحياة السياسية باستثناء (ماركوز) الذي ناصر الحركات الطلابية* في نهاية الستينات واعتبرها بارقة امل في الحياة الثورية وهي اي

(١١) ينظر: محمد جلوب الفرخان، مصدر سبق ذكره.

(١٢) المصدر نفسه ، ص ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(١٣) فيل سليتر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣ .

* الحركة الطلابية: مجموعة الإحداث التمردية التي قامت بها جماعات الطلاب المعادية للامبريالية وحرب فيتنام والتي ادت الى اول محاولة ثورية انقلابية في مجتمعات اوربا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية في العام (١٩٦٨) وقد لجأ الطلاب إثنائها الى بناء الحواجز والخنادق، وتحولت بفضل مشاركة اليسار الجديد والتروتسكيين الى حركة سياسية هدفها الإطاحة بحكم (ديغول) في فرنسا وبالنظام الرأسمالي حققت الحركة في فرنسا بعض الإصلاحات الجامعية ومطالب عمالية شملت ارتفاعا في الأجور، الا انها فشلت في تغيير النظام لاسباب كثيرة ، منها : قوة (ديغول) وقوة الطبقة الوسطى وتحالفها معه ، وموقف الحزب الشيوعي الفرنسي المعادي للثورة والملتزم بالتغيير البرلماني والتدريجي، الى =جانب صعوبة ايجاد ارضية مشتركة وتحالف ثابت بين الاحزاب الثورية واليسار الجديد ، ورغم ان افكار (ماركوز) مثلت احد اهم مصادر الهام هذه الحركة الا انها ما لبثت ان انطفأت وخفت جاذبيتها لعجزها عن إعطاء أجوبة جديدة عن =

تلك الحركات الثورية الطلابية بديل للحركات العمالية التي انتهى دورها الثوري وخصوصا عند الكثيرين من المفكرين الذين اعتبروا الطبقة العاملة جزء من الطبقة البرجوازية بعد اطلاق مقولة (تبرجز الطبقة العاملة)، وعلى الرغم من الحركات الطلابية قد اعتبرت مدرسة فرانكفورت ودراساتها المتميزة من مصادر التأثير المهمة لتلك الحركات الا ان معظم اعضائها كان مبتعدا عن الحياة السياسية وخصوصا (ادرنو و هوركهايمر)^(٤٤) ، وفي نهاية الستينات وبعد وفاة كل من (هوركهايمر) و (ادرنو) وانتهاء الحركات الطلابية اقتربت تلك المدرسة من نهايتها وبقيت افكارها الرئيسية واضحة في الدراسات النقدية المهمة وواصل الكثير من المفكرين ممن تأثروا بأفكار مدرسة فرانكفورت وبجهود فردية بدراسات فلسفية وفكرية متميزة ويقف على رأس هؤلاء المفكرين (يورغن هابرماس)* الذي يعد من ابرز المفكرين الذين ساروا على نهج المدرسة وممن تأثروا بفكرها النقدي .

المبحث الثاني : المصادر الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية

لا يمكن فهم النظرية النقدية** لمدرسة فرانكفورت الا بالرجوع الى المصادر الفكرية لفكر هذه المدرسة ، غير ان ما يميز هذه المدرسة عن باقي المدارس الفلسفية و السوسيولوجية الاخرى هو عدم اقتصرها على المرجعية الفلسفية او السوسيولوجية فقط ، فقد تشربت هذه المدرسة من ينابيع جميع العلوم الانسانية، من الفلسفة (كانط وهيجل)، ومن علم الاجتماع (كارل ماركس وماكس فيبر و اوغست كونت) وعلم النفس (فرويد) والعلوم اللغوية (اوستين) ونظرا لسعة الموضوع سوف نتكلم عن الاسس الفلسفية والسوسيولوجية .

=مشكلات العالم المعاصر رغم طموحاتها في رسم الطريق نحو التحرر الانساني . ينظر : توم بوتومور ، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢ .

^(٤٤) كريم عباس زامل ، مؤسس مدرسة فرانكفورت : www.institution.rssnews.ir

* يورغن هابرماس : فيلسوف وعالم اجتماع الماني ، ومن ابرز المعبرين عن الاتجاه العقلاني النقدي ونقد الطابع التقني والوضعي القمعي للعقل في الممارسات الرأسمالية والاشتراكية ، ولد في مدينة (دوسلدورف) ، ودرس في جامعتها ، وحصل على الدكتوراه عام (١٩٥٣). ابرز نتاجاته الفلسفية القول الفلسفي للحدثة وخطابها السياسي، المعرفة والمصلحة والعلم والتقنية كأيدولوجية، مفهوم الحدثة عند هيجل وغيرها . ينظر : حسن مجيد العبيدي ، مصدر سبق ذكره .

** النظرية النقدية : يقصد بها تلك النظرية التي كان ينطلق منها رواد مدرسة فرانكفورت في انتقادهم للنظام الهيجلي، ونقد الاقتصاد السياسي، والنقد الجدلي وتهدف الى اقامة نظرية اجتماعية متعددة المصادر والمنطلقات، كالاستعانة بالماركسية والتحليل النفسي، والاعتماد على البحوث التجريبية ، وبتعبير اخر النظرية النقدية هي تجاوز للنظرية الكانطية، والمالية الهيجلية ، والجدلية الماركسية فهي نقض للواقع ونقد للمجتمع بطريقة سلبية ايجابية. ينظر: سعد البازعي وميجان الرويلي ، دليل الناقد الادبي، مركز الثقافة العربي، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٠٠ .

أ - المصادر الفلسفية: اتخذت مدرسة فرانكفورت او مايعرف بالنظرية النقدية من النقد اساسا لها، والنقد هو تقليد الماني قديم وقد ظهر وبشكل جلي مع (كانط) ومن بعده (هيجل) واتباع (هيجل) من بعده (الهيغلين الشباب) ليصل هذا التقليد الى مدرسة فرانكفورت. ويرجع العديد من المهتمين بالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت الى النقد (الكانطي) الذي يعد مرجعا اساسيا اعتمد عليه اصحاب النظرية النقدية وخاصة من كتبه الرئيسة الثلاث: (نقد العقل الخالص) في العام (١٧٨١)، (ونقد العقل العملي) في العام (١٧٨٨)، وكتاب (نقد ملكة الحكم) في العام (١٧٩٠). وقد حاول بعض مفكري النظرية النقدية اتخاذ منحى توفيقى بين الفلسفة الكانطية والمادية الجدلية (لاسيما في بعديهما المتعالي كما يقول ماركوز)، وانطلاقا من القيمة التي اسستها الكانطية في التاريخ الحديث للفلسفة الكلاسيكية الالمانية سعى فلاسفة فرانكفورت الى تقديم النظرية التي يجتهدون في بنائها وتوضيحها كوريث شرعي للعقلانية الكلاسيكية من كانط^(١٥). واذا كان هناك اختلاف بين الباحثين حول ما اذا كانت الفلسفة تمثل احدى الخلفيات الفلسفية لمدرسة فرانكفورت، اذ هناك اجماع على ان فلسفة (هيجل) تمثل مرجعية اساسية لفكر مدرسة فرانكفورت وهذا يتضح من كتابات (ماركوز) وخاصة في كتابه (العقل والثورة)، فاذا كان (كانط) قد اقام فلسفته النقدية لتمييز العلمية الصحيحة عن المعرفة الميتافيزيقية التي تؤدي الى وقوع العقل في التناقض فان (هيجل) قد جعل من التناقض جوهر لفلسفته ومنهجه الجدلي^(١٦). وقد قام (هيجل) من خلال منطقة الجدلي، بأدخال العقل في الوعي وفي الطبيعة ثم تجلى في التاريخ، واصبح هو جوهر التاريخ ومحركه، بل اصبحت العملية المعرفية نفسها تنمو في مراحل متعددة، وقد قام (هيجل) ايضا بمهاجمة المعرفة العقلية الخالصة التي فصلت الفكر عن الوجود، كما هاجم (هيجل) الفلسفة التحريبية الخالصة التي اغفلت السمات العقلية للواقع. ويعد (هيجل) حسب منظري فرانكفورت راند الفلسفة الاجتماعية لانه خلص الفلسفة من القيود الشخصية المفردة، حين القى بالوعي في تجربة جماعية وكونية يخوضها الروح منذ اللحظة الاولى التي انفصل فيها عن الطبيعة، وتظهر هذه التجربة في الدين والفن والسياسة وتجد في الفلسفة تعبيراتها المفهومية^(١٧).

(١٥) إبراهيم الحيدري، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ٢٥/١١/٢٠١٣: www.ahewar.com

(١٦) محسن الخوني، هيجل في مدرسة فرانكفورت: www.civicegypt.org

(١٧) المصدر نفسه.

وقد انقسمت المدرسة الهيجلية بعد وفاته الى جناح يميني وجناح يساري ، وقد تمسك الجناح اليميني بالاتجاه المحافظ في مذهب (هيجل) ووسعة ، اما الجناح اليساري فقد طور الاتجاهات النقدية عند (هيجل) مبتدءا هذا التطوير بتفسير تاريخي للدين، وقد دخلت هذه الجماعة الاخيرة في نزاع اجتماعي وسياسي متزايد الحده مع عهد عودة الملكية وانتهى امرها اما الى الاشتراكية القوضوية الكاملة واما الى الليبرالية التي تحمل طابع البرجوازية المصغرة^(١٨)، وقد تعارضت معايير (هيجل) النقدية مع الواقع الاجتماعي السائد ، ولهذا السبب اطلق خصومه المعاصرون لمذهبه اسم (فلسفة سلبية)، وقد ظهرت في العقد التالي لموت (هيجل) فلسفة ايجابية او وضعية ترمي الى ازالة تأثير اتجاهاته الهدامه واخذت هذه الفلسفة على عاتقها ان تخضع العقل الى سلطة الواقع ، وان الصراع حدث بعد ذلك بين الفلسفة السلبية والايجابية او الوضعية ليقدم مفاتيح متعددة تساعد على فهم نشأة النظرية الاجتماعية الحديثة في اوربا .

ب - الاسس السوسولوجية :

١ - التأثير الماركسي : تاريخيا يمكن القول بان النظرية النقدية تمتد بجذورها الى الماركسية عبر حلقات اسبوع الاعمال الماركسية ، التي انبثقت منها فكرة تكوين معهد الابحاث الاجتماعية ، كذلك يمكن الاشارة الى انه خلال مرحلة التكوين ، عقد المعهد علاقات قوية مع (لوكاتش)، (وكورش)، اذ اخذ عنهما اعضاؤه تحليلهما لفكرة حتمية تخطي النظام الرأسمالي، التي احتلت لبّ النظرية النقدية خاصة خلال ادارة (جورنبرج) للمعهد ومن الواضح ايضا ان المعهد كان مواكبا لكافة التطورات في (الاتحاد السوفيتي) بعد ثورة (١٩١٧)، وان (هوركهايمر) حاول ان يطبق الماركسية بعدها فلسفة نقدية على صعيد نظرية المعرفة، واهتم مع زملائه وبالذات بعد وصول (ستالين) الى الحكم، وعقد المعاهدة النازية - السوفيتية، بتوسيع الطروحات الماركسية وتمييتها في الاصعدة النظرية والاجتماعية والنفسية، وبشكل مختلف عن التفسيرات التي قدمها لها منظروا الاممية الثانية والثالثة، وان تم ذلك دون بلوغ حد التعارض معها^(١٩). من هنا يمكن الاشارة الى ان العلاقة الاولى لمفكري مدرسة فرانكفورت مع الماركسية، لم تكن انخراطا في عقيدة وفدت من الخارج ، او انهم دخلوا الماركسية مستسلمين لكل افكارها وممارساتها لدى النظم التي اتخذتها، بل مثلت اعمالهم

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) توم بوتومور ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٢٥-٢٦ .

نوعاً من (التدخل الهجومي) في أزمة الماركسية الارثوذكسية هذا التدخل الذي فسره (كورش) على انه: (اخذ في الاعتبار اسباب الازمة، دون اخفاء عمقها وتناقضاتها فمثلاً رفض هولاء المفكرون طروحات الاشتراكية الاصلاحية، ورفضوا كذلك الطروحات اللينينية ، ولم يسقطوا في وهم اعادة بناء عقيدة اصيلة وواضحة ، ولا يوجد اي عضو منهم ذهب ضحية التصور السائد بان الاتحاد السوفيتي قد حقق الاشتراكية)^(٢٠). وهكذا فان منظري مدرسة فرانكفورت تأثروا بالماركسية حتى عدّ البعض ان هذه المدرسة ليست الا فرعاً من فروع الماركسية ، لكن اصحاب النظرية النقدية وان تبنوا الماركسية كمبدأ او كمنهج فانهم لم يلتزموا بها كلياً ولم يتشبثوا بمقولاتها المتمحورة حول نقد النظام الاقتصادي والرأسمالي وحول الايدولوجيا بصفة عامة^(٢١)، بل تركزت ماركسيتهم على نقد الاغتراب والاسباب الكامنة وراءه في المجتمعات الصناعية القائمة على الكليانية والمعقولية التقنية والبيروقراطية التي ادعت التقدمية وتباهت بالهيمنة على الطبيعة وعلى الانسان في العالم الشيوعي والرأسمالي، ولم يكن المصدر الاساس لهذا النقد هو النظرية النقدية برمتها ولا الارتباط بالطبقة العاملة بقدر ما كان التأثير بماركس (الشاب وخاصة في كتاباته الاولى وتحديدًا في (مخطوطات ١٨٤٤) ، وقد وجدوا في ارائه تأكيداً لاغتراب الانسان وعرفوا ان نقدهم لها لا ينبغي ان يقتصر على الاصلاح الاقتصادي والسياسي وعلى (وثبتها السلعية) - حسب المفكر الماركسي جورج لوكاتش - وعقلانيتها المزعومة التي تقف حجر عثرة امام كل حياة انسانية اصيلة وهذا ما حاول القيام به (ادرنو وهوركهايمر) في كتابهما المشترك (جدل العقل)^(٢٢). وقد انطلق (هابرماس) من فكرة ان الماركسية فكر يحتوي على قدرة نقدية هائلة لكل ماهو عام وشامل ، وقد طرح في نفس الوقت مشروع اعادة (توجيه الماركسية) ، واذا كان (ماركس) قد قلب الجدل الهيجلي على رأسه وجعله يسير على قدمية كما يقال فان (هابرماس) هو ايضا قلب الماركسية على رأسها لتسير على قدميها وذلك استناداً على عقلانية (ماكس فيبر)، لكن رغم المكانة التي تحضى بها الماركسية في مدرسة فرانكفورت فانها لم تسلم من النقد خاصة في شقها التقليدي والاستليني الدوغمائي اذ عدّ رواد المدرسة ان الماركسية لم تعد تواكب التغيرات التي تحدث في العالم الرأسمالي، وان الرهان على الطبقة العاملة في القيام بالثورات اصبح

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٢١) خليل كلفت، إشكالية مدرسة فرانكفورت: بين النظريتين النقديتين الأصلية والجديدة:

شبه مستحيل في مجتمع استطاع احتواء هذه الشريحة الواسعة، ليراهنوا على فئات اخرى من قبيل الطلاب والاقليات العرقية كطليعة استراتيجية للتغيير وهذا ماتبين جليا في احداث (١٩٦٨) في فرنسا وفي امريكا حين رفض الطلاب الأمريكيين الحرب على فيتنام^(٢٣).

٢- تاثير ماكس فيبر : تعد كتابات (ماكس فيبر) حول العقلانية من احدى المرجعيات الأساسية لمدرسة فرانكفورت، وقد ظهرت بوضوح في كتابات (ماركوز) وخاصة كتابة (الانسان ذو البعد الواحد)، كذلك في حديثة عن منطق الهيمنة وهو المفهوم الاساسي الذي اضحى مبدأ جوهريا لمدرسة فرانكفورت في اوج ازدهارها ويعني ان السيطرة على الطبيعة من خلال العلم والتكنولوجيا تنشأ عنه بالضرورة شكلا جديدا من التسلط على الإنسان^(٢٤)، ويمكن ان ندرج وجهين رئيسيين للتشابه بين مدرسة فرانكفورت وكتابات (ماكس فيبر)^(٢٥):

الوجه الاول: هو ان العقلانية التقنية او الترشيد قد تم تصورهما كقوة مجردة تشكل مجتمعا يقع خارج نطاق التحكم البشري، اذ ان المنطق الداخلي للنظام الذي خلقه العلم والادارة العقلانية يقوم بهذا العمل على نحو ما من وراء ظهر الافراد او الجماعات الاجتماعية المعينه وانه يقوم بهذا - اي العمل - ايا كان الشكل الظاهري للمجتمع اي بصرف النظر عما اذا كان المجتمع رأسماليا او اشتراكيا ، شموليا او ديمقراطيا ، وبهذا المعنى يتم احوال مفهوم (المجتمع الصناعي) محل (المجتمع الرأسمالي)، وقد برهن (ماركوز) على مقولات (فيبر) بقوله: (... ليس تطبيق التكنولوجيا فحسب، بل التكنولوجيا نفسها، هي التي تمثل تسلطا على الطبيعة والانسان بطريقة منهجية علمية ومحسوبة وماكره ، وان الاهداف والمصالح المحدده لهذا التسلط لا يتم دسها على التكنولوجيا فيما بعد ومن الخارج، وانما هذا يدخل في تصميم بناء الجهاز التقني).

اما الوجه الثاني: يمكن العثور على وجة التشابه في النزعة التشانمية التي تنشأ من تفسيرهما للمجتمع الصناعي الحديث، فاذا كان (فيبر) ليبرالي يانس- على حد تعبير توم بوتومور- فان مفكري مدرسة فرانكفورت وخاصة (ماركوز) يمكن وصفهم بانهم (راديكاليون يانسون)- حسب بوتومور- اذ ينظر (ماكس فيبر) ومعه رواد مدرسة فرانكفورت الى ان التوسع الاكثر او الاقل قسوة للترشيد والعقلنة يعني ان المجتمع سيصبح عرضه للتسلط من جانب علاقات

^(٢٣) محمد الجلاي، مصدر سبق ذكره.

^(٢٤) توم بوتومور ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٧٧ - ٧٨.

^(٢٥) المصدر نفسه ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

اجتماعية ذرائعية محضه وسيصبح (قفصا حديديا ودولة للتحجر الالي) تختنق فيه الابدعية الفردية والقيم الشخصية. ان تشاؤمية (ماركوز وهوركهايمر) فيما يخص مصير الفرد هي من نفس تشاؤمية (فيبر) فالعقلانية التقنية^(٢٦)، إي العقل الذرائعي هو الذي يسود الحياة الاجتماعية وان بقيت قوى قليلة تعارضها ، وهذا ما يخلص الية (ماركوز) في كتابه (الانسان ذو البعد الواحد) . واذا كان الرواد الاوائل لمدرسة فرانكفورت قد اعتمدوا على كتابات (ماكس فيبر، وكارل ماركس) فان (هابرماس) كأحد رواد الجيل الثالث من المدرسة لم يكتفي بكتابات (ماكس فيبر وماركس) بل انفتح على كتابات سوسيولوجيين آخرين من قبيل (هربرت ميد) و (إميل دوركهايم)،^(٢٧) إذ يؤكد (هابرماس) ان مفهوم التواصل بوصفه نظرية علمية قد بدأ مع السوسيولوجي (هربرت ميد) في نظريته المرتبطة بالتفاعل الرمزي، اذ دافع- (هابرماس) - عن فكرة ان التواصل هو المبدأ المؤسس للمجتمع، اما فيما يخص (دوركهايم) فيتجلى فكره بوضوح في كتابات (هابرماس) حول كيفية دمج الفرد في مجتمع طغت فيه القيم الفردانية، ويظهر ذلك في حديث (هابرماس) عن الفضاء العمومي وكيفية تحقيق الديمقراطية ففي كتابه (نظرية العقل التواصلية) يخصص فصلا مطولا للحديث عن (دوركهايم وميد) قائلا: (...ان تحول البراديغم الذي انتقل من الفعل الغائي الى الفعل التواصلية بدأ مع ميد ودوركهايم، فماكس فيبر ودوركهايم وميد ينتمون الى جيل المؤسسين للسوسيولوجيا الحديثة)^(٢٨)، من خلال ماتقدم يتبين لنا تنوع المصادر الفكرية التي اعتمدت عليها مدرسة فرانكفورت النقدية والتي اسهمت في اثراء وتنوع افكارها ومواقفها ازاء القضايا الفكرية التنوع.

المبحث الثالث: المنطلقات الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية

١ - نقد النزعة الوضعية والتجريبية

وجه الرعيل الاول لمدرسة فرانكفورت انتقاداته الحادة الى النزعة العلمية المفرطة وانساقها التي تحولت الى ايدولوجيات تستند الى يقين معرفي ومعتقدات ايمانية فكلها في نظرهم قد غدت انظمة معرفية مغلقة تعتمد اشكالا تنظيمية مقننة للحياة الاجتماعية، من خلال اسقاط اليات فهم الظواهر الطبيعية على الظواهر الاجتماعية بمعنى انها اصبحت

^(٢٦) الن هاو، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: (ثائر ديب)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢٥٧.

^(٢٧) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

^(٢٨) توم بوتومور، مصدر سبق ذكره ، ص ٨١.

ايدولوجيات شمولية تنظم علاقات الانسان بالانسان، والانسان بالاشياء مما حدا برواد مدرسة فرانكفورت الى رصد تحول العقلانية كايديولوجية ، ومحاولة الكشف عن مكامن التسلط فيها ومحاربة نزعتها الوثوقية^(٢٩)، وعليه جاءت النظرية النقدية كرد فعل على الوضعية التي كانت تعنى مع (اوغست كونت) بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية موضوعية تجريبية باستخدام الملاحظة والتكرار والتجربة، وربط الاسباب بمسبباتها بغية فهم الظواهر العلمية فهما علميا دقيقا، اذ كانت الوضعية تهتم ايضا بوصف الضواهر دون تفسيرها، لان التفسير يرتبط في منظور الوضعية بالتأملات الفلسفية والميتافيزيقية، كما استبعدت الوضعية البعد الانساني والتأملي والاخلاقي في عملية البحث^(٣٠)، وبناءً على وجهت مدرسة فرانكفورت الى هذه النظرية الوضعية انتقادات قاسية وفي هذا الصدد عبر (بوتومور) عن ذلك بقوله: (اتخذ اصحاب مدرسة فرانكفورت موقفا مناهضا لها فانتقدها ادرونو لعجزها عن اكتشاف المصلحة الذاتية التي تسهم في تحقيق تقدم موضوعي، بسبب القصور الكامن في اسسها المنهجية ، وفشلها في اقامة صلة قوية بين المعرفة من ناحية والعمليات الاجتماعية الحقيقية من ناحية اخرى، كما انتقدها هابرماس بسبب طبيعتها المحافظة ، وقصورها عن فهم العلاقة الخاصة بعلم الاجتماع والتاريخ انطلاقا من ان علم الاجتماع الوضعي لا يأخذ في اعتباره دور التحولات التاريخية في تشكيل المجتمعات)^(٣١).

ان المعرفة العلمية التي سخرت لفهم الطبيعة والتحكم فيها تم استخدامها ايضا للتحكم بالانسان، بمعنى ان منطق النظم الذي يصوره الانسان للسيطره على الطبيعة ، تم نقله بالكامل للتحكم في الافراد والجماعة ، وهذا مايتبادر الى الاذهان عند فحص مختلف التنظيمات القانونية والادارية، واشكال الترشيد والضبط والتقنين والعقلنة لمختلف جوانب الحياة في العالم المعاصر، فكل هذه الاليات تعمل وفق نظمها ومنطقها الداخلي وتكرارها انتاج مجتمع طبقا لمقاسات ومواصفات معينة، لكن مدرسة فرانكفورت ترفض اي تناظر او تماثل تجريبي قد يعقد بين الظواهر الطبيعية ، يمكن صياغته في قواعد وقوانين محددة ، على اعتبار ان السلوك الانساني لايمت باي صله للقواعد التي تتحكم في ظواهر الطبيعة، الامر الذي جعل رواد مدرسة فرانكفورت يقفون في مواجهة معارضة للنزعة الوضعية التجريبية، ولعل مايميز هذا

(٢٩) محمد الجليلي ، مصدر سبق ذكره .

(٣٠) توم بوتومور ، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٢١٢-٢١٣ .

النقد العنيف هو محاولة الكشف عن العقلانية بوصفها (اليات للتسلط والهيمنة) التي طورت العقل التقني تحت ستار العلم ومن اجل العلم وبدعوى الحياد والموضوعية العلمية^(٣٢)، ويمكن إجمال النقد الموجه من قبل مدرسة فرانكفورت للاتجاه الوضعي في ثلاثة انتقادات^(٣٣):

- ١- ان الوضعية كنظرية للمعرفة وكفلسفة للعلم تعد طريقا قاصرا ومضللا ، ولايمكن ان نصل من خلاله الى فهم صحيح للحياة الاجتماعية .
- ٢- ان هناك نوعا من الارتباط بين الاتجاه الوضعي وبين قبول ماهو قائم ، او بعبارة اخرى انهم يربطون بين الاتجاه الوضعي وبين الاتجاه اليساري المحافظ .
- ٣- ان الوضعية يمكن ان تساعد على خلق شكل جديد من اشكال التسلط التكنوقراطي، فمفهوم التسلط وفقا لكتاب (جدل التنوير) الذي كتبه (هوركهبايمر وادرنو) معا، لم يعد ينظر اليه على انه تسلط من خلال طبقة معينه، وانما هو تسلط يتم من خلال قوة لاشخصية هي (التكنولوجيا).

٢- نقد التنوير: التنوير من المصطلحات العلمانية الغربية ، الاوربية الاصل والنشأة وهو مصطلح له فلسفته الخاصة ودلالاته الواضحة والمؤثرة في عالم الافكار ، اما عصر التنوير فهو احد العصور المهمة التي مر بها تاريخ الافكار في اوربا وعبر عن بدايات لفلسفات وضعية كان لها اثر بارز في الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر^(٣٤).

ان مصطلح التنوير نشأ في ظروف تاريخية عاشتها دول اوربا شرقا وغربا، اذ كانت ثقافة الشعوب في اوربا خلالها مقصورة على ما تمليه عليها الكنيسة ورجاها،^(٣٥) وهو مصطلح يعبر عن (عملية متواصلة من تشغيل العقل وترشيد الفكر واحلال المنطق محل الخرافات)^(٣٦). لقد حمل هذا العصر (الخطاب الرسولي لروسو وكانط وديدرو وديكارت...)^(٣٧)، إن الأفكار التي طرحها التنوير كانت في البداية مجرد أفكار فلسفية لكنها بمرور الزمن تحولت إلى أفكار

(٣٢) محمد الجليلي ، مصدر سبق ذكره .

(٣٣) عبدالله ادالكوس ، مراجعات في نقد الحدائثة : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت:

www.arabicmagazine.com.

(٣٤) محمد السيد الجليلي، فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٢

(٣٥) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣٦) دوريندا اوترام ، التنوير ، ترجمة : (ماجد موريس إبراهيم) ، دار الفارابي ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص ٥٢ .

(٣٧) مجموعة مؤلفين ، ما بعد الحدائثة ، ترجمة : (محمد سييلا وعبد السلام بن عبد العالي) ، دار تويقال ، الدار

البيضاء ، ٢٠٠٧ ، ص ٤٠ .

سياسية أثرت في النظريات السياسية التي حكمت السياسات الداخلية والخارجية للدول^(٣٨). حاول فلاسفة التنوير - فولتير، مونتسكيو، ديدرو، روسو، مندلسون، كانط وغيرهم - اشاعة فلسفات متعددة منها العداء للاكليروسية* حاولوا من خلالها تفويض سلطة الاكليروس في المجال الواقعي هذا من الناحية السياسية، اما من الناحية الاقتصادية فاعلمت النظريات التي اوردها عصر التنوير هي تتابع الوضع الاقتصادي المادي للشعوب ليشكل الحافز الاساسي للتنمية والتقدم لان الوضع الاقتصادي الجيد سيحفز على استمرار الانتاج ويقوي الارباح ويرفع من مستوى دخل الفرد^(٣٩)، فقد ارتبطت التجارة في هذه المرحلة بالليبرالية وهذا ماساعد على طغيان العقيدة الليبرالية على العقائد الاخرى في فكر الاقتصاد السياسي الغربي، واشهر النظريات الرأسمالية برزت في هذا العصر على يد (ادم سميث) - مفكر اقتصادي رأسمالي ومن ابرز المنظرين التاريخيين للرأسمالية^(٤٠)، في حين حاول رواد التنوير دينيا التأسيس لحرية الدين وهذا مما جعله عصرا يوصف بالالحاد من الاكليروس الكاثوليكي، وهذا ماأسهم في بروز المذهب الطبيعي - الايمان بالقوة العليا لخالق الكون دون الإيمان بالوحي^(٤١) - والرأي الأقرب ان الاكليروس حاولوا تزييف الحقائق التي توصل اليها فلاسفة التنوير واتهموهم بالالحاد لان فلسفتهم تختلف عن تلك الفلسفة التي حاول الاكليروس ان يشيعها في المجتمع الاوربي للهيمنة عليها فكريا فالملحد عند الاكليروس هو من لايطيع ماأمر به وهم بهذا يحاولون ان يجعلوا من انفسهم الهة ومن المخالفين عصاة فلملحدون هم الخارجون عن المؤلف الكنسي وهم الفلاسفة .

لقد بدأ افول عصر التنوير مع مطلع القرن التاسع عشر، بعدما توصلت حركة التنوير الى درجة متطورة من التأسيس على يد (كانط) في المانيا، فلم نعد نشهد نظريات علمية كما كان ل (كلبر، غاليلي، نيوتن) وحتى الفلسفة وقفت ابنيها المحكمة عند (كانط)، بل لم يعد القرن

(٣٨) مجموعة مؤلفين، الحداثة وما بعد الحداثة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٨، ص ٨.

* الاكليروسية: تيار معارض ومعاد لرجال الدين انتشر في أوروبا بشكل خاص، يدعي الدفاع عن المسيحية الأصلية وذلك بوقفه ضد الممارسات التي تشوهها. ينظر: عبد الوهاب الكيالي وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.

(٣٩) فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٢، ص ١١.

(٤٠) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٩.

(٤١) ثروت عكاشة، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٠، ص

التاسع عشر ومابعده يشهد سوى شروح لمذاهب، او تلقين لمذاهب فلسفية مختلفة على نحو الافلاطونية المحدثة ، الديكارتيّة الجديدة ، ومراجعات هنا وهناك^(٤٢).

لقد كانت بداية النزول في اتجاه مضاد مع حركة الرومانتيك* - الرومانسية - التي انتشرت في باقي دول اوربا، فبعدها كانت حركة التنوير تقول بالفردية والذاتية وتحلل المرء من اثار العصور الوسطى، والفصل بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد، على العكس من ذلك كله حركة الرومانتيك ارادت ان تترج بالفرد وسط الامة، وان تخضعه خضوعا تاما لسلطان الدولة والكنيسة ، ولظروف الزمان الذي وجد فيه والجنس الذي ينتمي اليه والمكان الذي يقيم به ويحيا ماضيه كله في نفسه، ماضي امته وتقاليدها واساطيرها واحداثها.. فأصبح الانسان كتلة من الماضي مرتبطة بمكان معين، ومحدودة بزمان معلوم، وبالتالي اصبحوا يقدسون العصور الوسطى وبعدها ارقى العصور الانسانية واقربها الى تحقيق مثلهم، بل لم يعودوا يفصلون بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد بل يعدونهما من نسيج واحد لوجود لأحد منهما دون الآخر^(٤٣)، في حين الموقف الذي يتبناه العقلانيون المعاصرون من تاريخ الفلسفة هو موقف في الفلسفة وفي تاريخ الفلسفة غير انهم لا يعتبرون انفسهم امتدادا استمراريا لا للعقلانية الكانطية ولا للعقلانية الكلاسيكية، كون العقل في منظورهم يراجع نفسه ويعيد فيها النظر في ذاته باستمرار، فهو في نقاش ازلي وصراع ابدى مع ذاته، فالعقل لا يقر له قرار حركته الحقيقية هي النفي والتجاوز، نفي غير آلي، بل تركيبى وتوسعي^(٤٤)، وهنا في هذا السياق النقدي للعقل والعقلانية النسقية السابقة، يبرز موقف النظرية النقدية من خلال(ارنست بلوخ ١٨٨٥-١٩٧٧) ابرز منظري المدرسة، في دراسته عن عصر النهضة وكل من (ادرونو وهوركهايمر) اللذين الفا كتاب (جدل التنوير) واهتما بتقديم فلسفة غير تقليدية، لاهتمم بالاتجاهات النظرية في تاريخ الفكر قدر اهتمامها بالبنية العامة للمجتمع كما تنعكس في العقل، اذ بحثا مصائر العقلنة وامكانياتها للتحرر رغم مشكلاتها الضخمة بايقافها امام محكمة العقل(كانط)، وحكمتها يمكن تبنيها من خلال مسألتين: القول بان الاسطورة في زمانها تعقل، كما ان التعقل المعاصر او التنويرية المعاصرة تنجدة لتكون اسطورة من جديد. اما

(٤٢) سالم يفوت ، فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٢، ص ص ٦٥-٦٦.

* حركة الرومانتيك : حركة ظهرت في القرن التاسع عشر كحركة معارضة لحركة التنوير وكرفض للطابع الشخصي للعقلانية إذ أصبحت تبحث فيما قبل العقل وفيما بعد العقل .

(٤٣) سالم يفوت ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٦٥-٦٦.

(٤٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

بالنسبة للاسطورة فقد اوضحها بان الجماعات البشرية فيما قبل التاريخ حاولت التخلص من تحكم الطبيعة..^(٤٥)، فالإنسان الأول القادر على الاصطلاح او التعبير اتخذ الطبيعة موضوعا بان جعلها اداة او وسيلة لاغراضه، ففي الاسطورة اعادة تشكيل للطبيعة حسبما يراه الانسان. وهكذا فان الطبيعة ماتزال تقف في مواجهة العقل والتعقل باعتبارها مهددة^(٤٦)، وفي هذا الصدد يقول (ادرونو) : (... ان ماتحقق من تقدم في مجالات العلم والتقنية لم يحرر الانسان من الخوف ولم يجعل منه سيدا ..تشياً العقل وتشيات الذات الانسانية في إطار السيورة والتقنية، وأضحى العقل نفسه مساعدا للالاة الاقتصادية التي تشمل كل شئ ، انها تعمل كما لو كانت اداة كونية تناسب صناعة كل الالات الاخرى العقلانية المحضة المثقلة بالاخطار شأن مداوات الانتاج المادي المحسوبة جدا والتي لايمكن للناس احتساب نتائجها)^(٤٧). وهكذا فان الحل ليس في الخروج على العقل أو إزالته، بل في إن يتعقل تعقله او ينور العقل تنويره ، وعلية طرق (ادرونو) موضوع فلسفة التنوير من خلال اثاره اسئلة حول بنية العقل المعاصر .. فيتساءل هل الصورة التي وصلت اليها الحضارة هي نتيجة لفلسفة التنوير، التي استبعدت الابعاد المختلفة للعقل وجعلته يقتصر على العقل العلمي والتكنولوجي، وتم استبعاد صورة العقل الاخرى ، مثل العقل الخيالي والأسطوري؟ ،(إن نقد التنوير هو نقد العقل ذاته)^(٤٨) ، إذ نتيجة اتساع السوق وسيطرة العقل الحسابي اصبح الموجود المادي هو العقل الذي يتحكم في مصير الانسان المعاصر وتم اغفال الابعاد الاخرى كدور العلم التحريري للانسان مثلا، اذ اصبح ضروري نقد العلم الغربي في صورته الجزئية التي ساهمت في تفتيت الوعي الانساني وفي خلق اسطورة المردود والعقل الاستهلاكي- فأى نقد لهذه الحضارة يبدأ من نقد العقل - بحيث اذا كانت فلسفة التنوير تدعو الى استخدام العقل في كل شئ فان (ادرونو) يدعوننا الى استخدام العقل في مجال جديد هو نقد العقل نفسه في استخدامه كبنية اجتماعيه للسيطرة والقمع^(٤٩) ، ولذا يرى (ادرونو) إن فلسفة التنوير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد خلطت بين استخدامات العقل المطلقة. اذ تم استخدام

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٨٨.

(٤٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٤٧) ماكس هوركهايمر وثيرودور ادرونو، جدل التنوير، ترجمة: (جورج كتوره)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٦ .

(٤٨) سالم يفوت ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٨.

(٤٩) ينظر : إبراهيم الحيدري ، النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير ، مجلة دراسات عربية ، ع(٩-١٠)، تموز ،

العقل في البحث في مجالات سبق (كانط) ان بين انها تتجاوز قدرة العقل الانساني . اما القرن الثامن عشر الذي تنتمي اليه فلسفة التنوير لا يمثل الا لحظة من لحظات تاريخ العقل لان فلسفة التنوير هي تجميع وتكريس لميراث العقل الذي تجاوز الحدود التي حددها (كانط) من قبل - حينما كان العقل هو القوة الفاتحة - ولان فلسفة التنوير اهتمت بدراسة جهد الانسان في الانتاج والتأثير على الطبيعة دون الاهتمام بالحركة الاجتماعية الناجمة عن ذلك ، وهكذا فان العقل الغربي مهدد منذ ولادته بخاطر اللاعقل ، اذ كلما اكتسب العقل الدقة والسيطرة على موضوعه ازداد انغلاقا على نفسه لانه يفرض على نفسه معايير الدقة التي يفرضها على الموضوع الخارجي^(٥٠). وبالتالي فان العقل في صورته الراهنة لا يقل عن الاسطورة - اذ وقع العقل فيما بعد اراد التحرر منه - كون المعرفة العلمية تسربت الى العقل الفلسفي المعاصر، الذي اصحح يعتبر التقنية او الالة هي جوهر المعرفة الفلسفية والتقنية ، مما يعني التحول الكامل للعالم الطبيعي والاجتماعي - لانها تؤثر في الذات والموضوع والعمل واللغة وكل انماط العلاقة التي تربط الانسان بالعالم- اي تحول العلم والتكنولوجيا والفلسفة الى ادوات في خدمة السيطرة التي هي بمعنى من المعاني جوهر المجتمع الذي نشأ عنه هذا الاستخدام للعقل - اذن فهي عودة الى اللاعقل الى الخرافة وفي هذا الصدد يرى كل من (هوركهايمر وادرنو): (ان الانتحار الذاتي لعصر التنوير كان قد اجبر الفكر على تعطيل نفسه حتى حد السذاجة مقابل التمسك بالتقاليد الفكرية الجديدة للفكر الوضعي الذي اختار لنفسه طريق التحول نحو السلبية وتحطيم ما بناه بنفسه^(٥١)، من خلال ما تقدم نجد ان كلا من (هوركهايمر وادرنو) حاولا الاجابة على تساؤل مفاده : كيف ان التنوير الذي كان في البداية تعبيراً عن فكرة التقدم الانساني وعن فكرة تحرير الانسان، سرعان ما تحول الى اسطورة تخفي السيطرة او الهيمنة؟ او بعبارة اخرى كيف نفسر تدمير العقل التنويري لنفسه بحيث اصبحت الانسانية تخوض في حالة جديدة من البربرية بدل ان تصل الى حالة انسانية حقيقية ؟ (هوركهايمر وادرنو) بان ذلك تم عندما تحول العقل اداة للسيطرة على الطبيعة ثم على الانسان، والمقصود بالعقل هنا: العقل الاداتي او العقل التقني القائم على التكميم والقياس والفاعلية والموجه نحو ما هو عملي وتطبيقي ونفعي^(٥٢). بعبارة اخرى ان التنوير كان يهدف

(٥٠) إبراهيم الحيدري ، الحضارة والمدنية : طروحات في النظرية الاجتماعية والمجتمع ، نشرة معهد العلوم الاجتماعية ،

ع(١٠) ، الجزائر ، ١٩٨٣ ، ص ٤١ .

(٥١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٥٢) كمال بومنيير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .

في البداية الى تحرير الانسان من الخرافة والسحر والمعتقدات الفاسدة قصد اخراجه من وضعه السلبي والدفع به ليمارس حريته ويحقق سعادته وتقدمه، غير ان التنوير انقلب الى نقيض ذلك تماما، ذلك ان حركة التنوير، حتى وان ادّعت تحرير الانسان من عبودية الخوف والاساطير وادخلت العقل كأداة حاسمة في التعامل مع الاشياء والعلاقات الطبيعية والتاريخ، فانها في نهاية المطاف استسلمت لاساطير من نوع جديد^(٥٣)، ولهذا أكد كل من (هوركهائمر وادرنو) عبر جدل التنوير الى الوقوف على الازمة التي اصبحت تعرفها الحضارة الغربية منذ بداياتها الاولى، ومن مظاهر هذه الازمة التي عرفتها هذه الحضارة مايمكن ان نسميه جدلية التنوير والاسطورة او العقل واللاعقل، وهكذا فان وعود التنوير بتحرير الانسان من جميع السلطات المتحكمة فيه والمهيمنة عليه لم يعد من الممكن تحقيقه في ظل العقلانية ولاسيما ان هذه العقلانية أصبحت اليوم اداتية^(٥٤)، وبهذا المعنى ارتد العقل وحطم نفسه وانتهى الى التحول الى الاسطورة اي الى اللاعقل، وهذا ما اشار اليه (هوركهائمر وادرنو) بقولهما: (كما ان الاساطير قد اكملت التنوير، فان هذا التنوير قد ارتبك أكثر فأكثر في الاساطير، استقى التنوير جوهر مادته من الاساطير مع انه كان يريد القضاء عليها ، وحين مارس وظيفة الحكم ظل واقعا أسير سحرها)^(٥٥).

يبدو من خلال ماتقدم ان (هوركهائمر وادرنو) قد افلحا في نقد التنوير وعقلانيته التي اخذت طابعا اداتيا ، ولهذا وجدنا ان مختلف نصوص جدل التنوير قد انصبت على اظهار التأثير العميق الذي مارسه العقلانية الاداتية على مسار الحضارة الغربية، اذ اصبحت تمثل تسلطا على الطبيعة والانسان بطريقة علمية ومنهجية ومدروسة، وطبيعي ان يكون التشيؤ والاغتراب والسيطرة الذي يطبع هذه الحضارة من اهم المقولات التي اكدها (هوركهائمر وادرنو) على اعتبار ان الحضارة الغربية اذا بقيت حبسة هذه المقولات لاتساعد على تحقيق حرية وسعادة الإنسان بقدر ما تعمل على استلابه وإخضاعه باستمرار، ولكن وعلى الرغم من ذلك فان (هوركهائمر وادرنو) لم يكن موقفهما النقدي من العقلانية الاداتية ذريعة لترك مشروع التنوير لان الموقف التقليدي النقدي كان موجها في الاساس الى التحريف المستمر لقيم التنوير،

(٥٣) محمد نور الدين افاية ، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة : نموذج هابرماس ، ط٢ ، إفريقيا الشرق ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ٣٠ .

(٥٤) نقلا عن : كمال بومنيير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦ .

(٥٥) ماكس هوركهائمر وثيودور ادرنو ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢ .

والى تلك السلبيات التي ظهرت في مسار الحضارة الغربية والتي بلغت ذروتها في ظل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا.

٣- نقد العقلانية الاداتية :

العقلانية هي فلسفة اخضاع جميع المعارف والعلوم الى منطق العقل، وادراك ان كل ما يدركه العقل هو نسبي وهذا مما يجعل الافكار قابلة للنقد والتطوير، اذ يعد مفهوم العقلانية من اهم المفاهيم التي شكلت المشروع الحضاري الغربي في مختلف اطوار تأسيسه وتكوينه وخاصة عصر التنوير الذي ارتبط ايضا بالحدائة وشكل نقطة تحول أساسية في مسارها^(٥٦). وقد قامت النظرية النقدية بنقد العقلانية التنويرية، اذ وجد مفكروا مدرسة فرانكفورت انه لكي نحيط بمفهوم العقلانية لابد من الانطلاق من السياق الفلسفي الذي نجد ابرز ممثلية الفيلسوف الفرنسي (روني ديكار ت) والانكليزي (فرانسيس بيكون)، اذ يعد (ديكار ت) مؤسساً لبداية العقلانية، لانه عمل على تأسيس كل شئ برودة الى (الذات) عن طريق (الكوجيتو) وقد صاغها في عبارته المشهورة (إنا أفكر إذن أنا موجود)^(٥٧)، فالوعي بالأشياء والموجودات الخارجية حسب (ديكار ت) ترد الى الذات العاقلة كونها الاساس الثابت لكل يقين، وعندما وضع الذات في مقابل الموضوع تأسست تلك الثنائية الحاده بين الذات العارفة (اي الانسان) والموضوع المدروس الخاضع للمعرفة (اي الطبيعة). وعلى هذا الاساس فان الذات - وهي هنا تمثل جملة القدرات والملكات العقلية والنفسية التي يغلب عليها الطابع الفطري- هي معيار كل معرفة، فالذاتية تعبر عن نزعه فلسفية قوامها رد كل حكم قيمي الى افعال أو أحوال فردية واعية^(٥٨)، والذاتية مذهب فلسفي يدل على ان المعرفة ذاتية وليس حقيقة موضوعية خارجة عن ذات الانسان، كما تعني الذاتية (الجرأة على اقتحام كل الميادين، وكل تمظهرات الحياة وتعابيرها، لمعرفتها على حقيقتها)^(٥٩). وقد عبرت الذاتية عن نزعة تحريرية حاولت اشعار الانسان بفرديته واستقلاله عن الاخرين، ولهذا فان الكثير من الاتجاهات الفكرية التي ولدت في الفكر السياسي الغربي الحديث كانت ذاتية في طابعها العام وهذا ادى الى بروز فلسفات عديدة في مرحلة ما بعد القرون الوسطى حاولت ان تعبر

^(٥٦) كمال بومير ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦ .

^(٥٧) اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة (خليل احمد خليل)، ط٢، ج٢، عويدان للنشر، بيروت، ٢٠٠١، ص

ص ١٢٠-١٢١.

^(٥٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

^(٥٩) فتحي التريكي ورشيدة التريكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١ .

بصورة او بأخرى عن الذاتية^(٦٠)، فبعد العصور الوسطى ابتدأت الذاتية بالفكر اللوثري من خلال تحرير (لوثر) الفرد من الكنيسة بتأسيسه الذاتية الدينية بربط عبادة الفرد بره مباشرة لا عن طريق الكنيسة، اما (ديكارت) فقد اسس الذاتية الفلسفية التي عبر عنها بفلسفة (انا افكر اذن انا موجود)، في حين ان الذاتي عند (كانط) هو مميز الارادة المحضة بوصفها لا تقبل التعيين ولا التحديد الا بمقتضى جوهرها الخاص بها، اي بمقتضى الشكل الكلي الوحيد للقانون الاخلاقي، بمعزل عن كل مؤثر ملموس^(٦١).

ان نمو المعرفة العلمية - التي اخذت طابعا اداتيا - ادت الى تقلص افاق حرية الانسان وسعاداته وكذلك استقلاله الذاتي بأعباءه فردا، بل ان قدرته على التخيل والحكم المستقل تناقص أيضا^(٦٢)، لهذا انشغلت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت كثيرا بمصير الانسان الغربي المعاصر الذي تقلصت مساحة حريته كما قلنا، على الرغم انه يعيش اليوم في مجتمعات جعلت الحرية والسعادة والتقدم شعارا لها، غير انه في حقيقة الامر هناك قهر يمارس عليه بصور مختلفة داخل المؤسسات السياسية والادارية والاقتصادية وفي مقدمتها مؤسسات الدولة التي اصيحت في الوقت الحاضر تستند في نشاطاتها ووظائفها الى المعرفة العلمية والتقنية والى الخبراء المختصين في مختلف المجالات، ولهذا استطاعت الدولة (ان تتحول الى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة، فعرضت الانسان لاشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي وغير الواعي الذي ينطلق من اجهزة الانتاج الضخمة، والمؤسسات الادارية والبيروقراطية والاستهلاكية والاعلامية التي تشبه الات هائلة يحاول الناس ان يكيفوا انفسهم مع ضغوطاتها ومطالبها)^(٦٣)، وقد بلغت في ذلك حدودها القصوى حسب مفكري مدرسة فرانكفورت في النظم الشمولية التوليتارية، التي بلغت اوجها بعد صعود النازية وما حل باوربا في تلك الفترة التاريخية المأساوية من تاريخ الحضارة الغربية وما عرفته من وحشية وبربرية فتحول التقدم الى انتكاسه وتراجع خطير اصبح يهدد مصير هذه الحضارة والتي تجلت في مأساة الحرب العالمية الثانية، وما خلفته هذه الحرب من ضحايا لم تكن ذات طابع تقليدي وانما استندت بالاحرى على المعرفة العلمية والتكنولوجية المتاحة في تلك الفترة التاريخية، ويظهر ذلك في طبيعة الاسلحة والعتاد والوسائل الحربية التي استخدمت من

(٦٠) محمد مهران رشوان، مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٩-٢٠.

(٦١) اندريه لالاند، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠-١٢١.

(٦٢) نقلا عن: كمال بومنيير، ص ٣٠.

(٦٣) نقلا عن: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

طرف الدول المتحاربة وخاصة ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي إي تلك الدول المتقدمة تكنولوجياً^(٦٤).

يمكن القول ان العقلانية التي تبلورت في الفكر الفلسفي الغربي منذ عصر التنوير بعده الاطار المرجعي الفكري والتاريخي للحضارة الغربية وقد ارتبطت بفكرة السيطرة على الطبيعة ثم على الانسان ايضا بعد تعميم النموذج العلمي- التقني حتى يشملته ويستوعبه، اذ اصبح يعيش الاغتراب والتشيؤ فقد حرته واستقلاله الذاتي، وفي مقابل العقلانية الادائية وضع مفكروا مدرسة فرانكفورت العقلانية النقدية وذلك قصد اعطاء نفس جديد للفكر الفلسفي الغربي حتى يستأنف مهامه النقدية ، فالعقلانية النقدية تقوم بالاساس على جعل النقد الاسلوب الرئيس في النظر الى الاشياء والمواقف والافكار ، ولهذا فهو لا يختزل في الجانب المعرفي وانما يتوجه ايضا إلى الواقع الاجتماعي الملموس^(٦٥)، وبهذا فهو نقد اجتماعي قريب من المعنى الذي مارسه (كارل ماركس) لتفسير الواقع الاجتماعي الذي يصبح معه أكثر حيوية وارقى من الناحية الانسانية اي النقد الذي يرتبط بالممارسة، لانه لاعمى لنقد منفصل عن الواقع الملموس، ان العقلانية النقدية - حسب هوركهائمر وادرنو - قادرة على تجاوز الوضع القائم على السيطرة ، لذا فهي لاتخضع لما هو قائم وتقبله وانما يمكن ان تقوم بجهد نقدي تجاه الافكار والمؤسسات السائدة والمهيمنة وبالتالي تتحقق عملية التحرر الانساني ويتم تجاوز الاغتراب والتشيؤ، وبأختصار شديد يتحقق خلاص الانسان، غير ان هذا التحرر او الخلاص لايمكن ان تنجزه الطبقة العاملة بعدها ذاتا تاريخية يقع على عاتقها تحقيق التجاوز التاريخي بحكم انها تحمل بذور الثورة ضد الواقع اللانساني القائم ، لان الطبقة العاملة في نظر مفكري النظرية النقدية وقد تم استيعابها داخل المجتمع المتقدم تكنولوجياً، وبالتالي اصبحت عاجزة وغير قادرة على تأدية دورها الثوري ومهامها التاريخي، وقد كان موقفهم النقدي هذا نوعا من الابتعاد الفكري عن الماركسية، لهذا نلاحظ ان مفكري النظرية النقدية - خاصة الجيل الاول - قد عجزوا عن ايجاد بدائل واقعية وملموسة لتغيير الواقع القائم ووضع حد ل (طغيان) العقلانية الادائية، ولهذا فضل (هوركهائمر) في اواخر حياته ان يكرس جهوده في مجال اللاهوت الديني اليهودي وصاغ افكاره الاخيرة في اطار هذا اللاهوت، مؤكداً بانه لايمكن ان ينفصل الفكر الفلسفي عن البعد الديني، اما (ادرنو) و(ماركوز) فقد

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

اتجها نحو البعد الفني والجمالي بأعتبره افقا يمكن ان يتحرر فيه الإنسان من طغيان العقلانية^(٦٦).

ومن هنا جاءت اهمية العمل الفلسفي الذي انجزه (هابرماس) وان كانت لدية اختلافات مع اقطاب الجيل الاول- (هوركهايمر، وادرنو، و ماركوز)- فمن خلال نزعته النقدية التي اكتسبها بأحتكاكه بهؤلاء لقد عمل (هابرماس) على تجاوز الذي وقع الجيل الاول المتمثل في عدم قدرتهم عن ايجاد بديل عملي وملمس للعقلانية الادائية ، اذ ميز (هابرماس) بين مستويين من العقلانية^(٦٧): الأولى / ادائية تستند الى معرفة تجريبية ورياضية وتخضع للقواعد التي تهدف الى التحكم او السيطرة، والثانية / تواصلية التي تعني ذلك التفاعل الذي يحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية او الانسانية في حقبة تاريخية ما بواسطة الرموز والتي تخضع للمعايير التي تحدد تطلعات افراد المجتمع وتصوغ فهم هولاء لذواتهم، ويتحدد ذلك في المجالات الاخلاقية والجمالية والسياسية، قصد تحقيق التفاهم والاتفاق، ولهذا يتم استبعاد الاكراه والعنف والسيطرة، لان الفعل التواصلية عنده يركز على مقاربه تهدف الى تحقيق اتفاق مبني على قناعات متبادلة بين افراد المجتمع فيتحقق اجماع عقلائي يمكن ان يغير مسار العقلانية الادائية، ولهذا يجب التفكير في العقلانية التواصلية ، كما ذهب الى ذلك (هابرماس) في احد اشهر مؤلفاته.

يتبين لنا من خلال ماتقدم ان مفهوم العقلانية في سياقه الفلسفي الغربي هو مفهوم متحول على الدوام، فهو يتخذ صورا واشكال مختلفة، عقلانية ادائية، عقلانية نقدية، عقلانية تواصلية... الخ، وقد عملت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت على تتبع مسار هذه الاشكال المختلفة قصد الوصول الى صورة العقلانية المناسبة التي يمكن ان يحقق فيها الانسان حريته وسعادته .

المبحث الرابع : الاتجاهات الفكرية لمدرسة فرانكفورت النقدية

تمثلت مدرسة فرانكفورت باتجاهات فلسفية واجتماعية مختلفة وهي:

١- اتجاه هوركهايمر وادرنو : وهو الاتجاه الذي تمثل بالمنهج النقدي الجدلي، وهو منهج يهدف الى توحيد النظرية بالممارسة العملية وتقديم نظرية نقدية للمجتمع تستطيع الوقوف امام فكرة التسلط المؤدي الى العنف، وتسعى الى جعل الفكر النقدي ليبراليا وغير ليبرالي في

(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٦٧) محمد الجلاي، مصدر سبق ذكره .

الوقت ذاته عمل على تطوير النظرية النقدية في مجموعة دراسات بعنوان (النظرية التقليدية والنظرية النقدية)، اذ جدد البعد المادي للنزعة النقدية، اذ انطلق من ان حياة المجتمع هي نتاج العمل وهو الامر الذي قاده الى مراجعه نظرية نقد الإيديولوجية وفق نقطتين هما^(٦٨):

النقطة الاولى / هي احتواء المتشكل الفكري عند (كارل ماركس)، فقد شكل نقد (ماركس) للإيديولوجيا منطلقا اساسيا لـ (هوركهايمر) في نقده للإيديولوجية، اذ اعتبر كلاهما ان نقد الايديولوجية هي خطوة ضرورية على طريق الثورة البروليتارية .

النقطة الثانية / فقد بدأت بعد ان بدت هذه الثورة لـ (هوركهايمر) بعيدة المنال، وعلى اثر ذلك توجه (هوركهايمر) الى التركيز في نقده للإيديولوجية على مقولة العقل ذي البعد الاجتماعي، مبلورا موقفه الجديد من خلال نقده لموقف (كارل مانهايم) من الايديولوجية، الا ان صعود الايديولوجيات الشمولية قاد (هوركهايمر) الى التخلي عن الثورة والى تصفية حساباته مع الماركسية ومع النظرية التقليدية استنادا لمقولات العقل النقدي وهو ما اسس للمتشكل العقلي في فكر (هوركهايمر) في سعيه الى نقد للإيديولوجية. وقد خلاص هذا السعي الى ان (هوركهايمر) على الرغم من نقده للماركسية ولـ(ماركس)، قد استمر على موقفه الناقد للإيديولوجية معتبرا اياها كما اعتبرها (ماركس) وعيا زائفا وفكرا يتجاهل علاقته بالواقع، انها فكر يحجب الواقع .

اما (ادرنو) فهو يرى ان تأمل النظام الستاليني يظهر ان الايديولوجية كانت (وسيلة للاضطهاد)، لانها في الغرب لم يعد لها من وجه واضح القسما لتنعرف عليها، فقد اضحت اكثر قدرة على التخفي والدوبان ومن دون اي علاقة مع الحقيقة . فالايديولوجيات العلموية تعلن ان ليس هناك ماهو احسن مما هو كائن، ولاداعي للبحث عما ينبغي ان يكون، فالواقع ماهو كائن، هذه الثقافة دعاية ليس الا، وما تلبث كما يرى (ادرنو) ان تتحول رويدا رويدا الى ارباب عندما تعمل على اقرار الوضع القائم كامر لامناص او بديل عنه . وخلافا لذلك تعتمد النظرية النقدية على عدم اغفال تحليل الواقع التاريخي لارتباطها به اشد الارتباط حتى يتسنى لها ربط النظرية بالممارسة، فاذا كانت الممارسة تؤثر في التمثلات، فالنظرية تؤثر ايضا في الادراك. وعلى الرغم من انها تبحث باستمرار عن سبل تجاوز المجتمع، فيجب عليها ان

(٦٨) ماكس هوركهايمر وثودور ادرنو، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

تتحاشى السقوط في فخ ان تصح ايدولوجيا بدورها او ان تتحول إلى صيغة جاهزة للاستعمال^(٦٩).

انطلاقا مما سبق راجع (هوركهيمر و ادنر) اسس تشكيل وتفعيل النظرية النقدية وفقا لموقفها السابق من الايدولوجية ومن طروحات (ماركس) والماركسية، فقالا : ان النظرية النقدية في المقام ليست نظرية للمعرفة او نظرية للحقيقة ، مع انها جزء من المحاولات المستمرة التي تهدف للوصول اليها، انطلاقا من اهتماماتها بالجانب الفلسفي للعلاقات الاجتماعية ، فهي لذلك محاولة جادة لإيجاد بديل نظري^(٧٠). نقدي واضح المعالم للوقوف امام التيارات الفكرية والفلسفية التقليدية التي مارست انواعا من السلطة التي هدفت الى تفويض طوعي في تاريخ الفلسفة، الذي اجبر النظرية على التراجع، وقامت على اساس منهجي قويم هو الربط الجدلي بين النظرية والممارسة كما أكد (هوركهيمر) ان جدلية النظرية والممارسة يجب ان تكون داخلية، حتى لو تنكرت النظرية لكل فهم ذاتي وفي لحظة تشكيل المصلحة، لكن على النظرية النقدية ايضا ان تستغني في الوقت ذاته عن المماثلة والاحكام القاطعه التي تثير المصالح او ترتبط بها ، كما عليها ان تستغني عن كل وساطة لان قيمة ايه نظرية نقدية للمجتمع لاتتقرر بالفصل الشكلي للحقيقة وانما بالشروع في لحظة تاريخية معينه بالقيام بواجبها تجاه القوى الاجتماعية، وان اتخاذ مثل هذا الموقف انما يهدف اساسا الى توجيه المعرفة الذاتية نحو المجتمع ونحو مصلحة عقلانية ايجابية ، وهو مامكنها من ان تكون فلسفة اجتماعية هدفها نقد المجتمع وتعريفه من خلال نقد النظام القائم والكشف عن جوانب الخلل فيه ، ورفضه ان كان سلبيا ، وبمعنى اخر تعرية المجتمع الصناعي البرجوازي وعقلانيته التكنولوجية ومايرتبط بها من ايدولوجية لان نقد المجتمع هو في الوقت ذاته نقد ذاتي للأفكار التي تصدر عنه^(٧١).

٢ - الاتجاه النفسي - التحليلي : اراء اريك فروم والفرويديين الجدد*

(٦٩) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(٧٠) محمد سالم سعد الله، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد النبوية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ٢٠٠٧، ص ص ٢١٧-٢١٨.

(٧١) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

* الفرويديين الجدد : احدى التسميات التي أطلقت في أدبيات علم النفس على إتباع الطريقة الفرويدية في التحليل النفسي من علماء النفس الذين عاصروه او الذين جاءوا من بعده على الرغم من اختراع وجهات النظر التي يحملونها ومن اهم الفريديون الجدد : كارل يونغ ، ادلر ، اريك فروم ، هاري سوليفيان . الخ. ينظر: www.wikipedia.org

تقوم فلسفة هذا الاتجاه على مقدمات ماركسية في التحليل النفسي وقد مثله (اريك فروم) الذي نشأ في اسرة يهودية متدينه، وقد تأثر مبكرا بفكرة المخلص الالهي، غير انه تحرر منها بعد ان قرأ (ماركس) و(سبينوزا) و(جون دوي)، مثلما تأثر بأراء (هوركهايمر) و(ادرنو) و(ماركوز) بعد ان اصبح في مدرسة فرانكفورت النقدية عام (١٩٢٩) غير ان مسافة كبيرة كانت تفصل بينه وبين اعضاء مدرسة فرانكفورت، اذ كان معظمهم من المدرسة الفرويدية انذاك، ومن اجل تقرب المسافة التي تفصله عنهم بدأ بدراسة الطبيعة البشرية والاغتراب الاجتماعي، واخذ يبلور اتجاهها خاصا في التحليل الإنساني، موجهها انتقاداته إلى الفرويديين الذين مازالو يستخدمون طرقا بيروقراطية قديمة في التحليل النفسي والسايكولوجيا الطبيعية^(٧٢). حاول (اريك فروم) دمج التحليل النفسي بالنظرية الماركسية مع اختلافه معها ، مثلما انتقد تصورات علماء النفس حول (روح الجماهير) ورأى ضرورة فصل الانسان عن اوضاعه الاجتماعية. ولذلك وجد ان من الضروري دراسة الماركسية وفهمها وتحديد اسسها ثم تطويرها انطلاقا من مفهومي الطبيعة الانسانية والحرية . وفي العالم (١٩٣١) كتب (فروم) مقالا حول (التحليل النفسي والسياسة) في مجلة (علم النفس التطبيقي) اثار سجالا علميا واسعا، اذ كان محاوله لتطوير الفرويدية من خلال نظرية المعرفة الماركسية^(٧٣). ورأى (فروم) إن الماركسية كانت على خطأ حين أسقطت أهمية العامل السيكلولوجي لغريزة التملك ، كما إن ماركس لم يضع أهمية للمقدمات السيكلوجية مثلما يقوم به هو اليوم، وبحسب الماركسية فان الإنسان له دوافع أساسية كالجوع والعطش وغيرها ..، وهو يسعى الى اشباعها، ولكن غريزة التملك ونزعة الربح هي نتاج علاقات اجتماعية ولهذا فان الماركسية تحتاج الى مرجعية سيكلولوجية، والى حلقة الوصل الضائعة التي تربط البناء الفوقي بالاساس الاقتصادي ، وتطوير علم نفس اجتماعي تحليلي على دراسة او فهم الموضوع بباعث غير واع عن طريق تأثير الاساس المادي في الحاجات البشرية الاساسية ، كما أكد (فروم) ان النزعة المسيطرة في المجتمعات الاوربية تقوم على تعميم تجاربها على كل المجتمعات كما في موضوع (عقد اوديب) وغيرها التي ترتبط بالمجتمعات ذات النزعة الابوية البطركية فقط ،مؤكدًا العلاقة التي تربط بين روح الرأسمالية والسلوك الاوديبى في وقت كانت فيه مثل هذه الافكار غير اعتيادية، وبهذه العلاقة ربط (فروم) بين العقلانية الاوربية وغريزة التملك والتزمت والكبت من جهه ،

(٧٢) حسن مجيد العبيدي ، مصدر سبق ذكره .

(٧٣) إبراهيم الحيدري ، مدرسة فرانكفورت والتحليل النفسي : فروم بين ماركس وفرويد : [www. Maaber.org](http://www.Maaber.org)

وبين قهر النظام الاجتماعي من جهة أخرى^(٧٤) وعليه تبلورت النظرية النقدية في فكر (فروم) بعد قرائته كتاب (حق الام الطبيعي) ل(يوهان ياكوب باخوفن) الذي صدر في العام (١٨٦١) فحدث تحول في فكر (فروم) واخذ موقفه من نظرية (فرويد) يتغير تدريجيا وخاصة موقفه من الليبدو وعقدة اوديب، وذلك عن طريق تجاربه السريرية من جهة، وتطوير نظريته في علم النفس الاجتماعي من جهة اخرى، اهتم (فروم) بقراءة (باخوفن) من وجهه نظر اشتراكية وركز على على المجتمعات التي يسود فيها حق الام ، وليس على الاهمية التاريخية لتلك المجتمعات التي تعاقبت عبر التاريخ ، والجانب الاخر من اهتمام (فروم) المتزايد بنظرية (باخوفن) يعود الى تناقص اعجابة بنظرية (فرويد)، ففي العالم (١٩٣٥) اعلن (فروم) الاسباب التي دفعته الى اتخاذ هذا الموقف من (فرويد)، قائلا : (ان فرويد هو سجين اخلاقيه البرجوازية وقيمه الابوية، وان الثقل الذي يضعه على تجارب الطفولة في التحليل النفسي يؤثر في ملاحظات التحليل النفسي ويدفع بالاشخاص الى الانحراف عن اتجاههم او صرف انتباههم، وفي حالة ان المحلل النفسي لا يقف من قيم المجتمع موقفا نقديا، او حين يخالف المحلل النفسي رغبات الاشخاص ، فهو سيلاقي مقاومة منهم)^(٧٥)، ولكن الحقيقة حسب (فروم) هي: (ان التسامح المثالي الذي يفترض ان يتحلى به المحلل النفسي ينبغي ان يوجه ضد الظلم الاجتماعي ولكن عندما اصبح القرار في يد الطبقة الوسطى تحول الى قناع اخلاقي، ولم يخرج من التفكير والقول الى العمل. والتسامح البرجوازي يبقى متناقضا بصورة مستمرة، فاذا كان واعيا فهو نسبي ومحابد ، واذا كان غير واع فهو يقف بالتأكيد في خدمة النظام القائم، ومثلما للتسامح وجهان كذلك للتحليل النفسي، اذ تختفي وراء واجهته المحايدة احيانا حالات سادية).

وفي العام (١٩٣٩) انفصل (فروم) عن مدرسة فرانكفورت وركز جهوده على العمل السريري في المستشفيات ولم يلتزم الطريقة الفرويدية في التحليل النفسي ثم اعلن انفصاله عن (فرويد) ومدرسته، كما اعلن في احدى مقالاته في مجلة العلوم الاجتماعية نقده ل(فرويد)^(٧٦).

^(٧٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

^(٧٥) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

^(٧٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٣- اتجاه هيربرت ماركوز : ويتمثل جوهر هذا الاتجاه في رفض المجتمع القمعي القائم، والثورة عليه من خلال تأكيده على الدور الحاسم والثوري للعقل في حياة الانسان وعدم النظر الى المجتمع من رؤية ذات بعد واحد .

لقد تشكلت البدايات الفكرية عند (ماركوز) منذ اواسط عشرينات القرن العشرين في المانيا، حين كتب نصوصا تعاون في بعضها مع الفيلسوف (مارتن هايدغر) وعارض هذا الاخير في بعضها الاخر، قبل ان ينتمي الى مدرسة فرانكفورت ليعمل على تفعيل النزعة الاصلاحية جذريا، داخل الماركسية والفرويدية على السواء^(٧٧)، وظل (ماركوز) طوال حياته ومسارة الفكري امينا لبداياته، وتجسد ذلك في العام (١٩٥٥) في واحد من اهم كتبه (الجنس والحضارة) الذي عمل خلاله على اعادة ربط فكر (كارل ماركس) بفكر (فرويد)^(٧٨) ، ولقد اثرى (ماركوز) النظرية النقدية بالاعمال التي اتجهت الى نقد كل اشكال الاستبداد والتسلط وفي مقدمتها التسلط التقني والاستبداد الايديولوجي، وقد ركز بشكل اساس على تحليل مفهوم القمع ودوره في البنية الاجتماعية، واثر الفعل السياسي في توجيهه وانتشاره وقد تم له ذلك، وذلك من خلال تحليل منظومتي : الجدلية المادية ل (ماركس) والكبت الجنسي وعنصر الليبدو عند (فرويد). واراد من ذلك ابراز العلاقة بين فعل القمع من جهة، وفعل الحركة الاجتماعية من جهة اخرى عن طريق البرهنة على^(٧٩):

١- ان الجدلية المادية قد رافقتها على الدوام جدلية بيولوجية، كان الصراع فيها قائما بين مبدأ (الارتواء) ومبدأ اللذة (الممارسة) .

٢- الازدواجية بين وعود الحضارة بتقدم الانسان واتاحة فرص العيش والسعادة وبين نموها من خلال تقديم ادوات الانتاج وتنويعها ، وضياح الانسانية .

٣- تفاقم الصراع بين العنصر الليبيدي القمعي ، وبين نضج الصراع الطبقي .

وقد قدم (ماركوز) معطيات نقدية جديدة في كل كتاب من كتبه التي تتمحور حول منطلق واحد هو اعادة قراءة النص والفلسفة الماركسية ، ومحاولة استثمار المعطيات الاجتماعية والثورية فيها لصياغة نظرية اجتماعية معاصرة تقوم على حرية الفرد وتحرر عقلايته، ونزوع كل اشكال التسلط والقمع وديكتاتورية الاراء ورجعية الانظمة وتعالى المؤسسات .

^(٧٧) إبراهيم الحيدري ، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت النقدية ، مصدر سبق ذكره .

^(٧٨) محمد جوده، مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، تحرير: (فضحي الرقيق) دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٤، ص ١٥٩ .

^(٧٩) محمد سالم سعد الله ، مصدر سبق ذكره .

ويعد كتاب (الانسان ذو البعد الواحد) من اشهر كتب (ماركوز) الذي حاول فيه ان يوضح صورة انسان البلدان الصناعية المتقدمة وكيف اصبح الانسان ذو البعد الواحد اذ اتين في ان واحد اداة انتاجية واداة استهلاكية في مجتمع الوفرة ومن خلال طرحه لهذه الافكار اشار الى ان الثورة او التغيير لا يمكنه ان يتأتى من المجتمعات ذات البعد الاستهلاكي الوحيد لانها مجتمعات لا تريد التغيير ولا يمكنها التغيير، واحتمالات الثورة التغييرية بالامكان حصولها في المجتمعات الهامشية التي لا تدخل في بوتقة المجتمعات ذات البعد الواحد وعلى جميع الصعد، ان نقطة انطلاق (ماركوز) الاساسية هي الطاقة الهائلة التي بات المجتمع الغربي المعاصر التي يتمتع بها فهو مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة، وما تحقق له هذه الطاقة من هيمنة على الفرد يتجاوز كل اشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفراد^(٨٠)، وقد بنى (ماركوز) نظرية كان لها امتداد بشكل من الاشكال في الفكر الماركسي من خلال توضيحه لانتقادات جوهرية ومواضيع خلل يعانيها الفرد والمجتمع الغربي في ضوء التطور الحاصل و اشار (ماركوز) الى ان الحاجات التي يليها هذا المجتمع هي حاجات وهمية من صنع الدعاية والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري^(٨١)، وهذه الحاجات المصطنعة هي وسيلة معاصرة لخلق الانسان ذي البعد الواحد القابل بالمجتمع ذي البعد الواحد والتمكيف معه^(٨٢)، وهذا المجتمع يواجه اشكالا خطيرا من خلال الطابع (العقلاني اللاعقلانية) بوصفه المجتمع الذي يستغني عن حريته بوهم الحرية فيفقد الانسان حريته بوصفه انسانا بظنه انه يملكها ويفقد المجتمع دوره بوصفه مجتمعا بالامكان ان يخلق التغيير لانه يظن دوما انه على أحسن حال^(٨٣)، كما وضع (ماركوز) في كتابه (الانسان ذو البعد الواحد) على طرفي النقيض مجتمع الرأسمالية الامريكية وطوباوية مجتمع أكثر حرية وسعادة، فأهمية هذا الكتاب تكمن في الوصف المنهجي لكل ميكانيزمات الرقابة في المجتمع الامريكي، فهو يبرهن ان الجنس واللاوعي والمعارضة السياسية مجبرة على التكييف ومصلحة النظام مقابل مايقدمه هذا الاخير من سعادة، فالنظام قادر على صنع حاجات واحلام مزيفة، وهذا مايحول دون وضع اسسه موضع البحث بشكل جذري ويسهل في الوقت ذاته استيعاب

(٨٠) هربرت ماركوز ، الإنسان ذو البعد الواحد ، ترجمة : (جورج طرايشي)، ط٣، كمنشورات دار الاداب ، بيروت ، ١٩٩٨.

ص ١٠ - ١١.

(٨١) المصدر نفسه ، ص ١٢.

(٨٢) توم بوتومور، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(٨٣) هربرت ماركوز، مصدر سبق ذكره، ص ١٢.

القمع^(٨٤). وهكذا فإذا كان التصنيع والرأسمالية جعلت الفرد مغترباً حسب رؤية (ماركس)، فإن (ماركوز) عبر عن الفكرة ذاتها في الفكر السياسي الغربي المعاصر من خلال نقده للإنسان ذي البعد الواحد مع إضافة البعد الاستهلاكي إلى المعادلة الذي أدى دوراً في المجتمعات المعاصرة أكثر من الحديثة لما أصبح للتقنية والإعلام من أثر في حياة تلك المجتمعات.

٤- اتجاه يورغن هابرماس : يعد (هابرماس) من أهم رواد الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت، اهتم بدراسة المجتمعات الرأسمالية المتأخرة (مابعد الصناعة) ذات الأيديولوجية التكنوقراطية كما صاغها في نظريته النقدية التواصلية التي تصنع حلولاً عقلانية لمواجهة تحديات الرأسمالية والعولمة وما بعد الحداثة^(٨٥)، هدف من خلال نظريته - النقدية التواصلية - إلى بناء عالم عقلاني إنساني منظم عن طريق الديمقراطية التعددية التي تقوم على التفاهم والتواصل والحوار العقلاني المستمر لتحرر من العقل الأداة الذي يسيطر على العقل الأوربي^(٨٦)، قصد (هابرماس) بالفعل التواصلية: (ذلك التفاعل المصاغ بواسطة الرموز وان يخضع للمعايير المعمول بها ، والتي تحدد تطلعات السلوكيات المتبادلة بحيث يتعين ان تكون مفهومة ومعترفاً بها من طرف شخصين فاعلين على الأقل)^(٨٧) ، غير إن هذا التفاعل المصاغ بواسطة الرموز اللغوية هو الذي يضمن - حسب هابرماس - الوصول إلى حقائق متفاهم عليها بين الأطراف المتحاورة، علماً ان الحوار في سياقة الاجتماعي أداة للقضاء أو لتجنب الحالات (المرضية) التي تصيب المجتمع ، ولتحقيق الاندماج الاجتماعي لأعضائه من دون عنف أو تطرف قصد الوصول إلى حقائق متوافق بشأنها بحيث يلعب الحوار فيها دوراً مركزياً تجنباً للصراعات الاجتماعية التي تهدد المجتمع ، وهذا ما يجعل للحوار فاعلية كبيرة ، ولا يمثل مشروع التواصل - حسب هابرماس - في الأقرار بحقيقة مطلقة ولا تسوية شيء تم اختياراً ، بل يتمثل في السعي وراء الوصول إلى قرار أو اختيار أو تقويم من لدن متحاورين مناصفة^(٨٨)، من دون ضغط أو إكراه، إذ ليس من حق المتحاور ان يفرض مواقفه

(٨٤) عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥٣ .

(٨٥) هبرماس، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة: (فاطمة الجوشي)، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص ٨ .

(٨٦) فنتحي التريكي ورشيدة التريكي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٨٧) نقلاً عن : كمال بومبير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٨ .

(٨٨) حسن مصدق ، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت : النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،

على الآخرين، ولاتقييم مختلف الآراء، اذ يجب الاكتفاء بعرض المواقف والافكار، والحوار هو الذي يحدد مدى صحتها ومصداقيتها ومدى تقبلها من قبل الذوات المتحاوره داخل الفضاء العمومي وبهذا المعنى فان تحقيق التفاهم عند (هابرماس) يقوم على ربط الفعل التواصل بالغة كأداة لتنظيم الافعال الاجتماعية وبالتالي فان اللغة عنده ليست مجرد وسيلة لنقل الافكار والمعلومات فقط وانما هي رابط من الروابط الاجتماعية الاساسية الذي يؤدي الى التفاهم المتبادل الذي يتخلى فيه الفرد عن ذاتيته الطبيعية وينخرط في الاطار الاجتماعي القائم على التواصل والمناقشة الحرة^(٨٩). مما تقدم يمكن القول بان عملية التواصل حسب (هابرماس) مشروطه بالسياقات الاجتماعية والثقافية ولكنها تبقى ايضا ذات طابع كوني، وعلى هذا الاساس قدم من خلال نظرية (الفعل التواصل) القائم على اللغة المبدأ المعياري الذي يعطي مكانه اساسية للجانب الاجتماعي في النظرية النقدية. وفي معرض حديثه عن الماركسية فقد عدها فكر ذو قدرة نقدية هائلة لكن لا بد من عادة توجيه الماركسية وذلك بالنظر اليها على اساس بناء نقدي وليس معتقد دوغمائي مغلق ولخص هذه الفكرة في مصطلح (الماركسية كنقد)، فالماركسية بالنسبة اليه ليست فكرا علميا ماديا يتجسد في تكوين نمط من الرؤية للتاريخ فحسب، كما انها ليست قياسا متواسلا لمنحنيات الانتاج الاجمالي وانعطافاته داخل ديمومة الجبرية، بل هي اهم من ذلك بسبب طرحها معايير ومقاييس علمية تسعى الى تحديد ومراقبة البنية الفوقية للمجتمع، ومن ثم فالماركسية في نظره ليست ايدولوجيا او معتقد سياسي فحسب وانما هي طاقة مستمرة للنقد^(٩٠)، وعلى الرغم من قربه من الماركسية، فانه اختلف مع (ماركس) في امر اساسي: اذ رأى ان (ماركس) قد اخطأ في اعطائه للانتاج المادي المركز الاول في تعريفه للانسان في رؤيته التاريخية بأعتبره تطورا للشكالات والانماط الاجتماعية، ولهذا رأى (هابرماس) ان التفاعل الاجتماعي هو ايضا بعد اساسي من ابعاد الممارسة الانسانية، وليس الانتاج وحدة وهو ماوضح فلسفته التي تقوم على مفهوم الاتصال او التواصل وعلى اسبقية اللغة وأولويتها على العمل^(٩١)، هذا من جانب، ومن جانب اخر اتهم (هابرماس) الفلسفة الوضعية بأنها ورغم احكامه القيمة فيها لصالح الوضع القائم، تتجاهل الاهتمامات النظرية للعلم كأداة لتحقيق تحرير الانسان من ضرورات الطبيعة

(٨٩) كمال بومنيير، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.

(٩٠) هميل حسين حاسي، مدرسة فرانكفورت: www.wings.ahlamontada.net

(٩١) توم بوتومور، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

والبنية الاجتماعية ، بهدف فلسفي ايضا وهو استعادة العلاقة بين النظرية والتطبيق على اساس عقلائي، كما ذكر ان العقل عند فلاسفة التنوير كان سلاحا في المعركة ضد الوهم والخرافة والطغيان، وكان الشر قرينا للخطأ، بينما كان الخير هو نفسه الحقيقة وتحرير الانسان ومافيه من الخير له، ولذلك كان التطبيق مرتبطا كل الارتباط بالنظرية، او بالفلسف او بالبحث العلمي المجرد ، ولكن مع نمو العلم والتكنولوجيا وتضخم التنظيم البيروقراطي للمجتمع الصناعي، اتخذت تلك الرابطة طابعا شريرا وغير انساني ، واتخذ العقل طابعا عمليا، وتحولت العقلانية الى اداة لتحقيق اقصى كفاءة لمؤسسات المجتمع المدني الذي تديره تلك البيروقراطية، وفقد العقل بذلك دوره التحريري، ولم يعد كما كان اداة لاكتشاف الحقيقة، أو منبعا للمعاني والقيمة، وذلك عندما أكدت الوضعية ان وظيفتها كفلسفة سائدة هي تقديم وصف تصويري وموضوعي للعالم كما هو، وللمعرفة كما هي، وليس نقدهما^(٩٢).

٤- اتجاه اكسل هونيث * : وهو الاتجاه الذي مثلته الفيلسوف الالمانى (اكسل هونيث) وهو ممثل الجيل الثالث لمدرسة فرانكفورت ولعل المكانه المتميزة التي احتلتها هذا الفيلسوف ترجع لكونه استطاع وبجدارة عالية القيام بتنظير فلسفي لمفهوم (الاعتراف) وخاصة بعد ظهور كتابه الاساسي (الصراع من اجل الاعتراف) في العام (١٩٩٣) ، وتجدر الاشارة هنا عند (هونيث) يركز على الجوانب الاجتماعية والاخلاقية والنفسية ، كالظلم الاجتماعي والتهميش والاغتراب والتشيؤ التي يعاني منها الافراد وتعرفها الجماعات في المجتمعات ألمعاصره^(٩٣)، إن ما يؤكد عليه (هونيث) يتمثل في القول بانه لايمكن باي حال من الاحوال تحقيق كرامة الانسان وضمان حقوقه الاساسية والمشروعة اخلاقيا وقانونيا وسياسيا الا بواسطة مبدأ الاعتراف ، وفي هذا السياق فان صياغة الاعتراف تكتسب اهمية بالغة عنده ، وتلعب دورا مركزيا يتمثل في اعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية قصد التخفيف من المعاناة والظلم الاجتماعي والسياسي واللامساواة بين الناس وكل اشكال الازدراء و (الامراض الاجتماعية) وبالتالي تحقيق قيم العدالة وحقوق الانسان والحرية في إطار الاعتراف

(٩٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

* اكسل هونيث : ولد في مدينة (ايسن) في ألمانيا في العام (١٩٤٩) ، ودرس الفلسفة وعلم الاجتماع في (بون) ، ثم واصل دراسته الأكاديمية في جامعة (برلين) ، استقر في جامعة (غوته) بمدينة (فرانكفورت). له العديد من المؤلفات اهمها: نقد مفهوم السلطة ١٩٨٥، الصراع من اجل الاعتراف ١٩٩٢، مجتمع الازدراء: نحو نظرية جديدة ٢٠٠٢، التشيؤ ٢٠٠٥ . ينظر : كمال بومير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ - ١١٧ .

المتبادل^(٩٤)، وعلى الرغم من تأثر (هونيث) بنظرية (الفعل التواصلي) واشادته بها غير ان لديه تجاه استاذة (هابرماس) تحفظين اساسيين وهما:

التحفظ الاول/يتمثل عند (هونيث) في القول بان النموذج التواصلي عاجز عن تفسير التجربة المعاشة للافراد بصورة شاملة او كلية، وذلك لان التواصل اللغوي ماهو الا جانب من جوانب التفاعل الاجتماعي، ومن هنا كان من الضروري توسيع النموذج التواصلي حتى يتسنى لنا تعميق فهمنا بالتجربة الاخلاقية التي يمر بها الافراد وذلك بالبحث في (الجوانب غير اللغوية) للتواصل الاجتماعي بصورة اعمق من نموذج التوافق اللغوي وما يرتبط به من اشكال التفاعل كالحركات والأفعال الجسدية^(٩٥).

التحفظ الثاني / يتمثل في القول بان (هابرماس) قد تجاهل ماسماه (هونيث) الطابع التنازعي او الصراعى الموجود او السائد في بنية المجتمع والذي يحدد نمط الحياة الاجتماعية والاخلاقية التي تميزه، و عوض التركيز على رد التفاعلات الاجتماعية الى التفاهم التواصلي يجب ربط هذه التفاعلات بالتوترات والنزاعات والصراعات الاجتماعية، ((وذلك لانة يتعذر علينا الوصول الى فهم حقيقي للحياة الاجتماعية، الا كونها مجال الصراعات والنزاعات الاجتماعية وهذا الجانب الاساسي هو بالذات ماتجاهلته النظرية النقدية ويورغن هابرماس أيضا))^(٩٦).

نستنتج مما تقدم بان (هونيث) لايرفض بصورة كلية مفهوم (الفعل التواصلي) وانما يرفض اختزال هذا الفعل الى نموذج التواصل اللغوي ، ولذلك عمل على اغناء وتوسيع مفهوم التفاعل التواصلي من خلال البحث عن الافعال التي تدل على اعتراف الغير لنا كأفراد وجماعات، علما ان هذه الافعال قد تأخذ اشكال متعددة اهمها حسب (هونيث) علامات ومؤشرات اعتراف الغير بقيمتنا ومكانتنا في الحياة الاجتماعية، وهي متعلقة بالافعال الادراكية وغير الادراكية، بحيث تتوسع معايير التفاعل الاجتماعي الى انماط اخرى غير لغوية اي لم تعد تتحدد بواسطة الرموز والمعاني اللغوية المشتركة بين الافراد وإنما بمؤشرات الاعتراف المتبادل^(٩٧).

(٩٤) آلن هاو ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٧ .

(٩٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

(٩٦) نقلا عن : كمال بومير ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٣ .

(٩٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

الخاتمة:

في ختام بحثنا الموسوم بـ(الفكر السياسي لمدرسة فرانكفورت) توصلنا الى النتائج الاتية :

١- شكلت مدرسة فرانكفورت النقدية انعطافه مهمة في مسيرة الفكر الاوربي الحديث اذ كان لهذه المدرسة الاثر الكبير والفاعل في صياغة نظرية نقدية تتعامل مع السوسيولوجيا، الفلسفة، والسياسة ، والثقافة كأبعاد متداخلة ومتشابكة في عملية تكوين ودراسة النظريات الاجتماعية والافاق المعرفية والحضارية التي رافقت التطورات والتحولت التي شهدتها المجتمع الاوربي في ميادين الاقتصاد والسياسة، وبروز النظام الرأسمالي كعامل حاسم ترك اثاره على الادبيات الفلسفية والاجتماعية .

٢- ضمت مدرسة فرانكفورت النقدية اتجاهات مختلفة ، الا ان جميع هذه الاتجاهات اتفقت على نقدها للمجتمع الصناعي الشمولي وما افرزه من تناقضات وخاصة ثقافة البرجوازية .

٣- اختلفت النظرية النقدية عن الماركسية في :

أ - ترى الماركسية ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يتم بواسطة الفعل الثوري للبروليتاريا التي تعمل على تدمير الجهاز السياسي للرأسمالية والابقاء على علو وسائل الانتاج، اما النظرية النقدية فترفض هذه الرؤية وترى ان التكنولوجيا (من وسائل الانتاج) تعد في حد ذاتها احدي وسائل القهر وهي تمثل الاستخدام السيئ للعلم والحضارة .

ب - ترى النظرية النقدية ان العقل هو الوسيلة الاساسية للتحرير وليس الفعل الثوري الذي تؤكد عليه الماركسية .

ج - تؤكد النظرية النقدية على ان الثقافة الايدولوجية تلعب دورا هاما ومستقلا في المجتمع وليست انعكاسا حتميا للواقع الاقتصادي وهي بالتالي ترفض فكرة البناء الفوقي والتحتي للماركسية .

٤- اختلفت النظرية النقدية مع الوضعية في :

أ - تركز الوضعية على العقل الادائي الذي يعلي من شأن الوسائل بينما تركز النظرية النقدية على العقل الموضوعي الذي يؤكد على الغايات .

ب- تؤكد النظرية النقدية على العلاقات الجدلية بين الفرد والمجتمع بينما ترى الوضعية ان الافراد كائنات سلبية في مواجهة المجتمع .

ج - تركز الوضعية على شكل الظاهر ودراستها من الخارج فيما تهتم النظرية النقدية بدراسة الجوهر الذي يكمن خلف الشكل الخارجي للظواهر . وفي الختام نقول ، انه على الرغم من

انطفاء شمعات اغلب الرواد الكبار لمدرسة فرانكفورت النقدية ، الا ان افكارها الفلسفية والاجتماعية النقدية مازلت حية وهذا دليل على حيويتها وقوة تأثيرها وفعاليتها التي مثلت جيلا غير اعتيادي مرت لحظته التاريخية مرورا متميزا وغير اعتيادي ايضا .

الملخص

تعد مدرسة فرانكفورت أبرز مدرسة فلسفية اجتماعية نقدية معاصرة وجهت نقدا مركزيا وبناءً للسلبات الاجتماعية والفكرية التي عرفتها المجتمعات الاوروبية المعاصرة بتوجيه انتقادات جذرية وعميقة للمفاهيم والقيم التي تأسست عليها هذه المجتمعات ك (العقلانية ، الحرية ، التقدم العلمي والتقني)، اذ كان اغلب مفكرها يسعون الى هدف واحد مشترك هو العمل على تغيير الواقع ليصبح أكثر انسانية وابداع صورة العقل التي تتناسب مع هذا العقل الانساني .اذ على الرغم من انطفاء شمعات اغلب روادها الكبار الا ان افكارها الفلسفية والاجتماعية النقدية مازالت حية وهذا دليل على حيويتها وقوة تأثيرها وفعاليتها التي مثلت جيلا غير اعتيادي مرت لحظته التاريخية مرورا متميزا وغير اعتيادي كذلك .

Summary

Political Thought of the Frankfurt School of cash Assistant professor. Dr.Abeer suham Mahdi

The Frankfurt School most prominent school of philosophical and social cash Contemporary directed cash centrally according to the cons of social and intellectual known to communities of European contemporary criticism of radical and profound concepts and values that founded this community (k rationality, liberty, scientific and technical progress), as was most of the thinkers seeking to one common goal is to work to change the reality to become more humane and find a picture of the mind that are commensurate with the human mind .as Although extinguished spark most of the patrons adults, but the ideas of philosophical and social cash continue to be under live and this is evidence of the vitality and strength of the impact and effectiveness of which represented a generation is routinely passed through his moment of historical distinct and unusual as well.